ليل بلا قمر

مختارات أحمد الخميسى

بقلم :
إبراهيم حمزة

هاهو الكاتب القاص المعروف أحمد الخميسي (1948) يقدم لنا"مختارات" من قصصه القصيرة التي نشرها على مدى أعوام طويلة تحت عنوان إحدى القصص " ليل بلا قمر". وحين تقرأ تلك القصص ستجد نفسك متورطا فى محبة هذا الكاتب، ستجد نفسك أمام روح طيبة أصيلة تدافع عما تراه أخلاقيا نبيلا، بسيطا عميقا فى تفاعله مع مهنته الوحيدة التى يجيدها: الكتابة. يتقلب كغيره على جمر الجدوى من ذلك، وقيمة الإبداع فى مجتمعه، ولذا فقد هجر الكتابة أعواما، وعاد إليها، لأنها العمل الذى يتقنه ويحبه.

مختارات من عدة مجموعات قصصية صدرت له " قطعة ليل" و" كناري" و" رأس الديك الأحمر" ، إلا أن مجموعته الأولى صدرت – وهو في التاسعة عشرة - عن دار الكاتب العربي عام 1967 بعنوان "الأحلام. الطيور. الكرنفال". لكن البداية كانت قبل ذلك.

يقول أحمد الخميسي في مقال[1] عن والده "ذهبت مع أمي وأنا صبي في السابعة لزيارة والدي في المعتقل. كان ذلك عام 1955. جلسنا في انتظار رؤيته على دكة خشبية بغرفة مأمور السجن. دخل علينا ومعصم يده مربوط بقيد حديدي إلى يد شاويش. وما أن رآني حتى ضحك ورفع يده لأعلى يخاطبني: انظر. لقد قمت بسجن هذا الرجل لأنه شقي! جلس بجواري على الدكة وأخذ يمعن النظر في مبتسما يستوثق إن كانت حكايته قد انطوت علي أم لا. أسعفتني طفولتي على قلة سنواتها فابتسمت له بدوري لأوحي له أنني صدقت أنه حر طليق وأن الشاويش العجوز في ردائه الرسمي هو المحبوس! من ابتسامته، وابتسامتي المشبعتين بالحب وبالمكر الحاني برزت في رأسي لأول مرة فكرة أول قصة في حياتي. خططت لكتابتها ولم أفعل حتى الآن. فقط تخيرت لها اسمها حينذاك- ابتسامتان!". ماالذي يجعل صبيا يفكر في تقليد الممثلين وصبياآخر يميل لكتابة الشعر أو القصة أو رسم لوحة؟. كيف تتفجر الموهبة التي تتفجر أحيانا حتى في بيئة معاكسة للإبداع تماما؟. أمر مازال لغزا تقريبا.

في الثانية عشرة من عمره يكتب أحمد الخميسي أولى قصصه بعنوان "أم نبيل" ينشرها له والده على صفحات جريدة الجمهورية داخل عموده الأسبوعي الثابت المسمى "حصاد الأسبوع". لم تكن سوى إرهاصات كتابة. لكن من المؤكد

أنه يكتب قصة متكاملة بالمعايير الأدبية لذلك الزمن، هي قصة "الشوق" تنشرها مجلة القصة[2] التي ترأس تحريرها محمود تيمور في ذلك الوقت. وبعد ذلك بنحو عام – في 5 مايو 1966 – يخرج علينا بقصة "رجل صغير" في مجلة صباح الخير ويقدمه الكاتب الساخر محمود السعدني تحت عنوان "ابن الوز عوام" قائلا "هذا كاتب جديد لم يتجاوز العشرين من عمره بعد، وهو يثبت نظرية "ابن الوز عوام"، فأبوه كاتب شهير جدف في بحار الفن نصف قرن أو يزيد هو عبد الرحمن الخميسي. وهذا الكاتب الصغير سنا عنده فكرة وله أسلوب ودودة كتب، من هذا الطراز الذي يقرأ كثيرا ويكتب نادرا. وأنا رغم أنني حنبلي ومتزمت وقليل الثقة في الجيل الجديد، أدعوكم أن تقرءوا هذه القصة وأن تصلوا على سيدنا النبي.. وأنا أرجو ألا يداخله الغرور، خصوصا ونحن ننشر اسمه في نفس المكان الذي ينشر فيه كاتب كبير ورائد من رواد القصة والرواية وهو إحسان عبد القدوس". وفي ديسمبر من نفس العام 1966 تأتي الخطوة الأهم حين يقدمه إلي القراء الكاتب العملاق يوسف إدريس في مجلة الكاتب[3] بادئا بتحليل قصته المنشورة "استرجاع الأحلام" قائلا:

"وهذا نموذج آخر من "القصة الجديدة"، انتفاضات الثورة على "القصة" و"الحكاية" والتسلسل المعقول، تحطيم هذا كله، وخلط الحطام جيدا ورجه بشدة ثم تركه يؤثر فى القارئ عن طريق مذاقه العام أو متوسط درجة حرارته أو عن طريق الارتباك العقلى الوجدانى القلق أحيانا، المعذب، الملطف، الشاعرى المحير إن شئت التعميم.. و"القصة الجديدة" التى نبشر بها هى قصة خلفت وراءها المعانى والأحاسيس والحكم المتعارف عليها وتنقب فى النفس البشرية، فى مناطقها القطبية والموارية غير المكتشفة عن معانى ومفهومات ومضامين قد أحسها وتحسها معى ولكننا لم نتفق بعد على أسمائها.. لهذا لا أجد أمامى إلا هذا المزيج المركب بعد حطام ما خلفه لنا القدماء من لغة وأسلوب وطرق، أجسد من خلاله وبواسطته جنينا فكريا وشعوريا وإن كان كامل النمو". ويمضي يوسف إدريس قائلا "هذا عن القصة، أما عن الكاتب ـ فهنا المشكلة والمعجزة والشىء الذى أرفض تصديقه. أحمد الخميسى، الذى كنا نداعب محاولاته لكتابة القصة نفس مداعباتناله وهو صغير. أحمد يكتبها؟! قصة من النوع "الجديد" أيضا، وكالسيد البدوى بأسنان كاملة، وأكثر، بذقن وشارب، ولولا بعض هنات قلة الخبرة، لقلناالنضج الكامل؟! ضعوا هذه القصة بعد قراءتها فيما شئتم من خانات، أنا شخصيا أضعها فى الخانة الجيدة جدا، ثم اعلموا أو فلتعلموا أن كاتبها سنه ثمانية عشر عاما واحتاروا، مثلى، أين تضعونها بعد هذا".

في تلك السنوات عاش أحمد الخميسي تجربة جيل الستينات، وظل كما قال عنه محمود السعدني "يقرأ كثيرا ويكتب نادرا" في إطار محاولات أبناء ذلك الجيل التي رصدها يوسف إدريس لخلق "قصة جديدة". وسرعان ما تخرج أولي

مجموعاته القصصية إلي النور "الأحلام. الطيور. الكرنفال" عام 1967 الذي حلت فيه نكسة يونيو، وأعقبها محاكمات قادة الطيران الشهيرة عام 1968 التي أنزلت أحكاما مخففة بالقادة العسكريين فانتفض عمال حلوان للتعبير عن استيائهم، وساندهم الطلاب من الجامعات في فبراير عام 1968، وكان الخميسي أحد أولئك الطلاب، فألقي القبض عليه وظل معتقلا نحو ثلاث سنوات في معتقل طره والقناطر مع مجموعة من الكتاب والمثقفين.

بعد خروجه من المعتقل لم ينشر الخميسي سوى قصة "البحر" عام 1972 في مجلة الكاتب. ثم توقف. ما الذي جرى للموهبة التي تفتحت مبكرا؟ لماذا لم تكن تجربة المعتقل وقودا للمزيد من الكتابة؟ هل حقا كما يروى أحمد الخميسي في بعض الحوارات التي أجريت معه أن المعتقل علمه أن الكتابة لا تغير شيئا؟ وأن الأمر مرهون بالقوة؟ أم هي إلي جانب ذلك أسباب أخرى؟. على أية حال توقف الخميسي لسنوات طويلة عن النشر خاصة بعد أن سافر إلي موسكو للدراسة، وعمل هناك مراسلا صحفيا للعديد من الصحف المصرية والعربية. ثم عاد إلي مصر لينشر مجموعته الفريدة "قطعة ليل"[4] التي قال عنها الروائي والناقد الكبير علاء الديب "منذ زمن لم أعثر على مجموعة قصص بهذه الأهمية والجمال والإثارة. 12 قصة قصيرة هي فيما أعتقد حصيلة عمل جاد طويل وإدراك ناضج لمفهوم الكتابة ووظيفتها.. وأحمد الخميسي يستعرض في هذا العدد القليل من الصفحات قدراته ككاتب أستاذ قادر على التعبير الموجز النافذ المشحون بالصور، كل قصة تجربة مختلفة في القص والتناول، لكن تجمعها جميعا روح واحدة من الأسى والشجن الذي يحمل روح العبارة القاسية التي يصدر بها المجموعة "إلي المستقبل الذي لا يأتي أبدا". وفي كل هذه الموضوعات هناك حالة من الإنسانية الراقية التي تنقلك إلي الأعمال الفنية الكبيرة"[5].

تمهل الخميسي بعد ذلك نحو ست سنوات ليصدر في ديسمبر 2010 مجموعته "كناري" التي فازت بجائزة ساويرس فرع كبار الأدباء عن أفضل مجموعة قصصية، وقد قدمها القاص والمبدع الكبير محمد المخزنجي بقوله[6] "تمثل قصص أحمد الخميسي نماذج عالية لقدرات كاتب من كتاب القصة العربية الكبار، فهو كاتب يمنح نماذجه القصصية شمول الرؤية، التي تمزج - برهافة ورصانة معا - بين الإنساني الخاص والوطني العام، بين التخييل المجنح والواقعية الدافئة، سبيكة مشغولة بلغة يفتنُني فيها هذا الإيجاز البلاغي الذي يجعل جملته السوية القوية نابضة ومشعة، بلا إطناب، ولا استطرادٍ مُتشاعر، نسيج شفيف ومتين تنطلق عليه خيول حمراء تحيلنا إلى شجن وألم قضيتنا القومية، وبطات صغار مسحورة تلازم ضمائرنا حيال مذابح الطفولة العربية التي يتجاهلها عالم مخاتل، وشائج من حرير حي تربط بين آباء مغدورين وأبناء في التيه، بشر يشيد لهم الرعب السلطوي سجونا خانقة من هواء، أما القصة البديعة المسماة "قصة" فإن

القصة فيها تتحول بذاتها إلى كائن حي، وهذا الكائن يلخص الحياة، إنها قصة بقوة رواية. إنه كاتب كبير ينهض على روح متعفف، وثقافة واسعة عميقة تنطلق من المحلي إلى العالمي، ودراية نادرة بأرفع نماذج الأدب الإنساني، ثم إنه يمتاز بتواضع صادق حيال ما يكتبه.. وهذا يقتضي قراءة جديدة لقصص كاتب كبير جديرة بكل احتفاء وتقدير".

أما الروائي والناقد الكبير علاء الديب فقد اعتبر أن كناري "أجمل مجموعة قصصية منذ أرخص ليالي ليوسف إدريس"[7] قائلا "هذه مجموعة قصصية لكاتب استثنائي. صدرت في ديسمبر 2010 وعلى الرغم من كل الأيام غير العادية التي نعيشها منذ وقت صدورها، فإنها تزداد أهمية وتفصح كل يوم عن قيمة جديدة، وقول يستحق التأمل فيه والوقوف عنده. أحمد الخميسي واحد من النادرين المتفرغين حقا للكتابة الأدبية، إنه يأخذ كلماته بقدر نادر من الجدية ويشتغل على جمله وقصصه ومعانيه كصائغ يشتغل في الذهب الغالي، أو كمحارب يدافع عن أرض الوطن، إنه صاحب إدراك مثقف لمعنى ووظيفة الأدب، وصاحب حس جمالي لا يرضى إلا عندما تشف اللغة وتستقر على شاطيء الموسيقى. عشرون قصة قصيرة تطوف بك على أهم وأخطر قضايانا الاجتماعية، كما تحاول طرق كل أشكال القصة القصيرة من أول شكلها الكلاسيكي عند تشيكوف (مثلا قصتي: ممشى بين الأعشاب، وبدلة). إلي أشكالها التجريبية الحديثة في (بط أبيض صغير، فرصة سعيدة، حديقة). لم أتعود في هذا الباب الذي أنشغل فيه بتقديم الكاتب للقارئ أن أستغرق في العمل النقدي، ولكن الكنز الغني الذي يقدمه أحمد الخميسي يفتح مجالا خصبا لمناقشة شكل القصة القصيرة الآن، كما يضع القارئ أمام أخطر وأهم القضايا السياسية والاجتماعية بدون مباشرة فجة أو خطابية جوفاء، وأهم ما في الأمر هو البلاغة والاقتصاد اللذان تتميز بهما جمل الكاتب والعناية الفائقة بشكل القصة وبنائها بما يكشف عن عمق قضيته وأبعاد موضوعه، لذلك قارنت بين مجموعة "كناري" والعمل الخالد لعبقري القصة المصرية يوسف إدريس (1927-1991). فمجموعة"أرخص ليالي" (صدرت عام 1954) هي بشكل أوبآخر، إلي جانب قيمتها الفنية، قد ارتبطت بثورة 1952، كما ترتبط "كناري" بدون افتعال وتزيد بالأجواء التي كانت مقدمة لثورة يناير 2011. أحمد الخميسي المولود 1948، والحاصل على دكتوراه في الأدب من موسكو 1992، يدافع عن قيثارته ويعزف ألحانه ويعيد لنا في نبله وكرمه وفروسية أخلاقه ذكرى شاعر وفنان عظيم هو والده عبد الرحمن الخميسي، وهو نموذج لم يتكرر في حياتنا الثقافية والفنية، وهو بالنسبة لأحمد الخميسي ليس فقط والده، ولكنه روح فنية وأخلاقية وثورة فكرية وإنسانية تسكن روحه".

ثم ينشر الخميسي مجموعة "رأس الديك الأحمر" في ديسمبر 2012، وأستشهد هنا بما كتبه د. أبو بكر يوسف عن قصة "ومض" التي تضمها

المجموعة قائلا "إن قصة ومضْ هي قطعة من الماس النادر كتبت بقوة وحرارة وصفاء تستدر الدموع والحنان، فهي نسيج مغزول بحب وعشق وعناية فتلة فتلة، وعقدة عقدة، لكنه نسيج من نور لايمكن لمسه باليد الخشنة بل يحتاج الى قلب طهور لكي يحتضنه ويدس وجهه فيه ويبكي. المدهش في القصة ليس اللغة فحسب بل واللحظة التي جرى وراءها أحمد الخميسي طويلا حتى أمسك بها. هل يمكن للحب أن يحول الإنسان المادة إلى طيف؟ وكيف يصيبنا الحب فجأة؟ وكيف يكون العشق بدون تفسير؟ هي قصة ترد الاعتبار للواقعية الجميلة التي تتجاوز الخيال وتلهب العواطف وتسمو بالإنسان". بين يدي القارئ إذن مختارات من قصص كاتب كبير هو أحمد الخميسي ، وإذا كان النقد يقوم عادة بإضاءة العمل الإبداعي، إلا أن القارئ لأعمال أحمد الخميسي سيشعر أن النص يضيء النقد، ذلك أن قصصه تؤكد مشاعر النقاد نحو لحظاته المتوهجة، التي يعجز النقد أحيانا عن الإمساك بها، ذلك أن ثمة جوهرا نورانيا في الإبداع يحس ولا يمس، وقراءة هذه المختارات التي تتألف من ثمانية عشر قصة هي في اعتقادي فسحة للروح تسمو بها وتطهرها، تضحكهاأحيانا، وتبكيها، وتدعوها في كل الأحوال لتأمل حياتنا.
أخيرا يصدر الخميسي مجموعته " أنا وأنتِ" التي نال عنها جائزة ساويرس لعام 2017 كأفضل مجموعة قصصية بين كبار الأدباء ليقدم لنا المزيد من إبداعه الثري الذي أشار إليه تقرير لجنة تحكيم الجائزة حين سجلت أنها مجموعة : " تحتوي صيغا سردية متنوعة وبها قدر عارم من التجريب والمغامرة .. والمجموعة تتسم بقدر رفيع من النزوع الشعرى .. مع أسلوب خاص يؤكد أن للكاتب بصمة لا تتكرر"..

<u>هوامش</u>

1- العربي الكويتي – أبريل 2012 – والدي عبد الرحمن الخميسي .
2- مجلة القصة – وزارة الإرشاد القومي - العدد 16 – أبريل 1965
3- مجلة الكاتب – العدد 69 – السنة السادسة – ديسمبر 1966 – قصة استرجاع الأحلام أحمد الخميسي – تقديم يوسف إدريس
4- دار ميريت – القاهرة – قطعة ليل – 2004
5- جريدة القاهرة – علاء الديب – 7 يونيو 2005
6- كتاب اليوم – أخبار اليوم – كناري – أحمد الخميسي - ديسمبر 2010
7- جريدة القاهرة – علاء الديب – كناري أجمل مجموعة – 22 مايو 2012

انتظار

لم يعد أحد يذكر كيف أو متى بالضبط بدأ ذلك؟ حكايات كثيرة ترددت فيما بعد ، أما الحقيقة فلا يعلمها أحد، لأن للحقيقة عشرات أو مئات الأعين، واستخلاصها صعب. قال البعض إن رجلا نحيفا يناهز الخمسين خرج ذات صباح من منزله بشبرا بقميص مفتوح وبيده حقيبة سفرمتوسطة فسار مسافة في اتجاه الميدان حيث محلات السمك، وتوقف هناك بالحقيبة بذقن نابتة ووجه شارد يزر عينيه متلفتا بتعب يمينا ويسارا. وأخيرا مضى بتنهيدة إذعان إلي الرصيف فأنزل الحقيبة وجلس . ظل في جلسته حتى أخذت المحلات حوله تطفئ أنوارها وتغلق أبوابها بالتدريج . حينئذ دنا منه صاحب مخبز وسأله بفضول عن سبب قعوده هنا طيلة النهار؟. فغمغم دون يقين " أنتظر". ألح الرجل بمزيد من الفضول " خيرا .. ماذا تنتظر؟ ". حاول أن يتذكر أو يعرف ما الذي كان ينتظره طيلة اليوم ثم رفع رأسه قائلا " أنتظر وخلاص "، ثم أطرق برأسه بين يديه وأضاف بصوت خفيض" نعم " .

على مدى اليومين اللاحقين لاحظ سكان البيوت المجاورة وجوده، وقال أحدهم لزوجته وهما واقفان في شرفة يرسلان نظرة إلي الرجل : " لابد أن أولاد الحرام سرقوا محفظته ". في اليوم الرابع أمر صاحب المخبز أن يخرجوا له ثلاثة أرغفة كل صباح ، وتبعه أصحاب المحلات المجاورة فأخذ يتلقى بواقي سمك من مطعم مقابل على امتداد اليوم .

رمضان الطويل الشهير في المنطقة بالصايع ، لأنه يدعي أنه قادر على إصلاح أي شيء من شاشة تلفزيون أو فرامل السيارات إلي تسليك الأحواض المسدودة ، لاحظ في ذهابه ومجيئه الرجل الجالس في صمت، وحدق في صحون الطعام ، مرة وأخرى، ثم لبد للرجل. قبع بالقرب منه على الرصيف ، مثل الكابوريا ، ركبتاه بارزتان في الهواء ويداه تبلغان كل ما يلوح أمامه في الفراغ ، يحشو فمه بقطعة سمك أو حفنة أرز ويقول لمن يستفسر عن الرجل الجالس الصامت " هذا حبيبي .. بركة ". أما الرجل فلم يكن يعير اهتماما لشيء حتى للأوراق النقدية القليلة التي يسقطها له عابرون، كان يتلفت حوله فقط، ينهض من وقت لآخر ويسير حتى حافة الرصيف ، يضيق عينيه متطلعا بعيدا ثم يرجع إلي مكانه متنهدا.

على صيحات رمضان " حبيبي يا بركة " جاءت أم محمد في جلباب أسود قصيرة نحيفة كبوصة، تجر بدن ابنها العملاق الغائب عن وعيه ، مددت الولد على الأرض ثم تربعت قربه وجعلت رأسه ووجهه الشاب النضر مغلق العينين على فخذها، وراحت تمسح على جبينه طيلة الوقت وهي تزفر " الفرج ".

عندما طال بقاء الأربعة على الرصيف ضاق أحد أصحاب المحلات بالمشهد وأعلن في اليوم الخامس إنها " غرزة " ، فتحرك الرجل بحقيبته إلي الرصيف المقابل ومن خلفه رمضان وأم محمد يجرجران بدن الولد العملاق ، وهناك جلسوا تحت جذع شجرة ضخم مبتور . ثبت رمضان ما بين أعلى الجذع وجدار خرابة خلفهم كرتونة طويلة ، فصارت مظلة وقف تحتها يصفق بكفيه صائحا في الرائح والقادم" الفرج" .

بعض سكان المنطقة كان يتمهل أثناء مروره أمام الأربعة ويسأل من باب الدهشة عما يفعله الرجل هنا؟ وما الذي ينتظره ؟. رمضان الذي لا يتوقف عن الكلام عادة ، كان يلزم الصمت ناظرا هو الآخر إلي الرجل باستفسار، أما الرجل فيتلمس حقيبته ويقول بنبرة ضائعة " أنتظر ".

اليوم ساعة الظهيرة، توقف أمامهم عامل مفصول حديثا بعينين حمراوين وشعر قليل هائش . دخل تحت المظلة وسأل عن الحكاية بالتفصيل ، فرك عينيه ثم واصل طريقه إلي بيته . وقبيل الثانية فجرا أيقظته كوابيس من نومه ، ووجد نفسه جائعا فدخل إلي المطبخ وهو يفكر أنه هو الآخر منذ زمن ينتظر شيئا ما لا يعرفه لكنه ينتظر، قلب الفكرة في رأسه، ومع النور الذي انتشر في السماء خرج من بيته واتجه إلي جذع الشجرة حيث يجلس الرجل ومكث قربه ولم يفارقه .

تجاوز عدد الجالسين على الرصيف عشرين شخصا بعد أن انضمت إليهم أم فؤاد المجنونة التي تسأل طيلة الوقت برقبة مذعورة " أين فؤاد "؟

في مساء اليوم السابع لاحت عربة شرطة على رأس الشارع ، اقتربت من الحشد الصغير ولفظت من جوفها كومة جنود فرقوا بعصيهم الثلة فتناثر أفرادها واقفين في منتصف الطريق يحملون أشياءهم وهم يسترقون النظر إلي الرجل الذي وقف شاردا للحظات سار بعدها ببطء صوب نفق غير بعيد ، ومن خلفه مضى موكب بشري يجرجر بقج الملابس ومواقد الشاي والمواعين والأغطية وبدن الولد بعينيه المغلقتين .

اخترق الموكب النفق ودب زاحفا في صمت ، بأمل ، نحو المجهول . من دبيب الأقدام كنشيد في بطن النفق أحس رمضان الصايع بالأسى ، وأن المسألة لا يمكن أن تكون صحون الطعام التي تأتيه من دون جهد ، وشعر لأول مرة في حياته بأن شيئا ما لابد أن يقع تتبدل بعده الحياة .

بعيدا عن القاهرة على أطراف الطريق الزراعي استراح الجميع في أرض خلاء فسيحة. رقدوا في أماكنهم كيفما اتفق، وفي الصباح تأملوا المكان حولهم واستقروا فيه. ثلاث ليال امتد حبل الحكايات بينهم ، ودفق كل منهم قصته للآخرين مرة كالوجع ، ومرة كالأمل ، مرة في حكاية آروى التي حاولت الانتحار ، ومرة في حكاية بكر الذي واصل تعليمه، حكايات كثيرة صغيرة تبادلوها وهم ينشرون ملابسهم على حبال بين الأشجار، وهم يطهون الطعام وأطفال البعض منهم يزحفون بين أقدامهم . فيما ندر كانت تنشب بينهم شجارات عنيفة بسبب مزحة ، أو ماعون وضعه أحدهم في مكان ولم يجده لكن سرعان ما تهدأ النفوس . البعض كان ينسحب عائدا إلي المدينة ، إلا أن صفوف الوافدين واصلت تدفقها ، أناس من كل ناحية ، يأتون ، يضعون حقائبهم ، ويقصون حكاياتهم ، وأخبار المليارات التي تسرق هناك، والحرائق المدبرة التي تلتهم الوثائق والتاريخ والمباني العريقة ،العبارات التي تغرق في البحر بمن فيها، والجميلات اللواتي يقتلهن رجال الأعمال العشاق لحظة غضب، القطارات المغلقة على الموت، وانفجارات المظاليم في قرع الطبول الأعمى. وحينما تتراخي أذرعهم بجوارهم ولا يعود لديهم ما يقصونه يقف رمضان الطويل ضاربا بمغارف كفيه صائحا " الفرج ".

يوما بعد آخر بزغت في الأرض أعشاب ذات رائحة حلوة مرة ، أمسك سويلم الفلاح بواحدة منها وقربها من أنفه وقال : " عتر " . ويوما بعد آخر عبدت أقدام تلك الكتلة البشرية دروبا ضيقة بين الأعشاب، وأصبح من الصعب على عابر يتطلع إليهم من بعيد أن يميزهم عن غيرهم أو أن يلحظ في الليل سقف الأمنيات الصغيرة المتشابكة كفروع شجرة عملاقة .

عصر اليوم تلبدت السماء بالسحب ثم أخذت ترعد وتصب سيول أمطار غزيرة لم تتوقف إلا آخر الليل. وعلى ضوء الفجر الشاحب شاهدوا برك المياه الصغيرة الراقدة تروي الأرض، وامتلأ الجو برائحة الأعشاب الرطبة ، ولاحت وجوه البعض غارقة في مرارة عميقة، وارتفعت درجة حرارة بدن العملاق ، فدثروه ببطانية انتزعها رمضان من أحدهم . وساد الصمت حتى انتشل فكري التمرجي قدمه من بركة ماء وتساءل بيأس عن جدوى ومعنى وجودهم هنا ؟ . لم ينطق أحد بكلمة ، كانوا جميعا يتأملون حالهم . وفي صمت نهضت من مكانها مدرسة شابة نحيفة وشاحبة للغاية كانت تعتصر بيدها كتابا طيلة الوقت، وبحركة عصبية غطت رأسها بوشاح وسعلت ملتفتة إلي أحدهم ، فوقف شاب كان قد تعرف بها هنا ولازمها حتى ظن الجميع أنهما سيحتفلان بعرسهما هنا ، وقف وهو يتجنب النظر إلي الآخرين ولحق بها وهي تبتعد بساقين مرتعشتين . وشملت إبراهيم العامل المفصول رعدة ، فاتجه إلي مرتفع ، ووقف مبتلا منفعلا يخاطب الجمع المستنزف " كان كل منا ينتظر وحده، لكننا الآن معا قوة من الآمال، وقوة من اليأس الصلب، ولابد لانتظارنا أن يشق بصوتنا السماء والأرض " .

الرجل الذي لم يعرف أحد اسمه ، ولا قصته ، نهض من مكانه ، ومد بصره مأخوذا بموج الرؤوس البشرية المترجرج بلا نهاية ، وانحنى على الأرض ببطء وتناول فرع شجرة اتجه به إلي المرتفع وغرسه في الطين ، ثم عقد علي طرفه خرقة صغيرة ، تطلع الحشد الصامت إليها وهي ترفرف بتراخ ، ثم وهي تخفق في الريح بكل قوتها ، علما على طين يختلج بالانتظار .

ـ من مجموعة " كناري" ديسمبر 2010

◘ ◘ ◘

رأس الديك الأحمر

قبضتان ضغطت جناحيه بقوة إلى جنبيه فأحالته إل ى كتلة مدمجة لا يتحرك منها سوى الرأس بمنقاره يضرب يمينا ويسارا بجنون. اجتهد ليتملص من القبضتين مهتاجا بحب البقاء. حث جناحيه على الرفرفة بدون جدوى. لحظة، هوت بعدها السكين على عنقه بضربة باترة فصلت رأسه. طار الرأس في الهواء مسافة ثم هوى على الأرض، تقلب متدحرجا حتى سكنت حركته تحت حافة الثلاجة. راحت العينان الضيقتان اللامعتان تحيطان بالمشهد أمامها، تتابعان خيط الدم على البلاط الأبيض، تلاحقان تخبط البدن بين قدمين راسختين.

دم لم ينزفه الجرح بعد واصل مسيرته في الدماغ وفي البدن المفصولين. يحدق الرأس مذهولا بجثمانه وهو ينهض متحاملا على مخالبه وساقيه وفخذيه. ينفش الجثمان ريش صدره ويتقدم خطوة وحده من دون رأسه. يتمايل. يضغط على مخالبه ليحفظ توازنه. يلتفت إل ى اليمين. يتوقف متجمدا. بركة دم صغيرة تجري حول مخالبه. يشرأب نصف العنق المفصول متلفتا بالغريزة بحثا عن طريق.

يرمق الرأس ساقيه بعيدتين عنه ترتجفان. هما ساقاه، وهذا صدره الذي طالما شق الهواء من أعلى سور البيت القديم، والريش البني الأقرب للأحمر ريشه اختال به بعد معاركه مع الديوك الأخرى. يشتعل الرأس رغبة في الزحف إل ى بدنه. تغدو الرغبة جارحة من اليأس فيرتد إل ى ذكرياته. فجر القرية وهي تفيق على صيحته، هوا ؤها، سماها. الغيطان المفتوحة أمامه. الوثب إل ى حافة بئر المياه. الدجاجات يحطن به في نصف قوس في مشيه وفي جثومه حين تعتم الدنيا. الزرع الذي يبس فجأة من حوله. الكلاب التي ضمرت. اليد القوية تختطفه وتزج به في قفص. تسوقه إلي مكان بعيد. العش الغريب. منقاره وهم يقصونه بآلة حادة. فتات الطعام. حلمه مئات المرات أن يستعيد حريته. بدنه كان يتردد ويطوي جناحيه على السلامة. الآن يتفجر البدن وحده بالمهانة المختزنة طويلا. يهتاج ثائرا يفتش عن منفذ. يخطو بمفرده متخبطا. يرتطم بساق سلم خشبي على الجدار. يكاد أن يقع. يشد عضلاته ليظل واقفا. يندفع غير آبه. يصطدم بماسورة تحت حوض الماء. يتمهل. ترتعش كل خلية فيه بغريزة التفكير.

الرأس ملقى قرب حافة الثلاجة بعرفه الأحمر يرى طريق النجاة. الباب ! إذا عبر البدن من الباب سيسترد حريته وشموخه. الباب. ابتهل الرأس إل ى الرب أن يمنحه لحظة واحدة مع بدنه ليبثه الرسالة. الباب. لكن خيوط الدم توشك أن تنهى دورتها الأخيرة في الرأس. يشعر بعطش قاس. بضعف. بدوار. باختلاط الرؤى والرغبات والذكريات. بحاجته الماسة إل ى دفء بدنه وحرارته. تتباعد ومضات عقله وتبهت. تغيم بينه وبين بدنه المسافة القصيرة من البلاط الأبيض.

فجأة، انفلت البدن. رفرف لأعلى. دار في الهواء دورة عجيبة غير متوقعة. خفق جناحاه بين الأرض والسقف . اندفع إل ى نافذة مفتوحة وانطلق منها إلي الحرية.

تطلع الرأس إلى النافذة بنظرة خابية. لقد نجا ؟! نجا! كيف لم تخطر النافذة على بالي؟!

ينطفيء لون العرف الناري على البلاط الأبيض. يحشد الرأس كل ما تبقى له من ومض. يتسمع جناحيه في الهواء البعيد. إنه أنا من دوني! فكيف حدث ذلك؟

- جريدة الدستور – أبريل 2012

◘ ◘ ◘

كناري

وسط ستة مليارات إنسان ، وملايين الجبال والبحور ، وكل الكواكب والنجوم ، لدي فقط ، كل مالدي ، عصفورة واحدة صغيرة ، أقول لها قبل نومي : " تصبحين على خير ياكناري الصغيرة " . تقف على راحة يدي ، لا أضغط عليها بقوة ، وخشية أن تبعد عني لا أبعد أصابعي عنها . أكلمها بصوتي الأجش فتقول : ياعندليب . أرقد تحت الأشجار فتقول : سبعي يرتاح . أستحم في النهر فتطير فوقي تضرب الهواء بجناحيها : تمساحي في النهر . هذه العصفورة هي كل ما لدي . أتحمل نزقها ، وحماقاتها ، وأصبر على تلفتها الكثير برأسها ، وأتفهم نظرة عينيها التي تبدو مطمئنة راسخة ثم تحترق في لحظة بعذاب خوف مفاجئ .
حطت على كتفي مطلع اليوم . رفعت رأسها نحو السماء بكبرياء . قالت بنبرة لا تقبل النقاش : الجو اليوم صحو . وأضافت آمرة ولم تنظر إلي : دعنا نطير قليلا.
أحاول أنا الذي اعتدت تقلباتها أن أوضح لها : أنا بشري يا كناري ، وزني ثقيل ، ولا أطير . تمسح الأفق الذي ستحلق فيه بنظرتها ، وترد برأس مرفوع : أوقف سخافاتك هذه . ينخفض صوتي : افهميني ، أنا لا أقدر . مرت على السماء بنظرة أخيرة متفحصة ، ولا أظنها حتى سمعتني ، وقالت : هيا . هيا ! . قبضت بمخالبها الدقيقة على ياقة قميصي لترفعني ، اغتاظت من ثقلي وضخامتي ، ومع ذلك ارتفعت بي للأعالى . شهقت من الخوف وأنا معلق بشعرة في الهواء . قامت بدورة كاملة في السماء، زقزقت ، دخلت سحابة بيضاء وخرجت منها لأخرى وعلى ريشها وجبيني ندى . تعبت ، ففردت جناحيها وانزلقت من السماء للأرض ببطء . حطت حيث أقف وظلي خلفي . نفضت الندى عن جناحيها وأطلقت صوتها الرنان نحوي : ألم أقل لك إن بوسعك أن تطير؟ . تطمئن إلي وقفتها على الأرض فتستعيد نبرتها الآمرة : سنطير كل يوم مادمت قد أحببت ذلك . ربما غدا .
وقفت على رأسي ونكشت شعري متطلعة حولها ، ثم ، وكأنما اتخذت قرارا حكيما بعد تفكير، قالت بثقة : الآن سر بنا . تميل برأسها على جنب وتتذكر : إلي اليمين . أمشي بها ، أدوس على الأعشاب ، وأجتاز الأنهار ، وهي سارحة بعظمة في ذكرياتها وأحلامها . وفجأة ، صاحت : انحرف يسارا الآن . تصرخ دون سبب : قلت لك يسارا ! . مضيت بها بهدوء بين أوراق الأشجار العالية . قابلتنا بحيرة صغيرة ، ثم لاح جبل مرتفع ، فرفرفت كأنها كانت تبحث عن الجبل من زمن وصاحت : الجبل ! ألم أقل لك ؟ . غمغت : لكنك يا كناري لم تنطقي بحرف عن أي جبل ؟! . دارت أمام وجهي حانقة تضربني بمنقارها : بل قلت لك يسارا لأن هناك جبلا ! . عادت تنقل قدميها فوق كتفي وصاحت : الآن إصعد الجبل ! . نصعد . عند القمة وقفت أستريح ، وملأت هي صدرها الصغير جدا بالهواء النقي البارد . وقالت : يكفي هذا . تعبنا . وهبطت بعينيها إلي الغابات عند سفح الجبل ، وهتفت بعظمة : إلق بنفسك إلي تحت . هيا . أريد دليلا أنك تحترمني . قلت لها : سنموت يا كناري . ستتحطم ضلوعي على الصخور ولا يبقي مني شيء . دارت حولي باهتياج

وعصبية : أنت جبان . رعديد . لن نموت . وحتى إذا متنا سيبقى على الأرض حطام الحب وينمو من جديد . تضربني بجناحيها على ظهري تدفعني بمنقارها إلي حافة الجبل وتصيح : يا جبان . أنظر إلي الفراغ الهائل الذي يفصلني عن الأرض ، وألقي بنفسي من أعلى الجبل وهي خلفي . وما أن يحيط بي الهواء حتى أسمع صرخة مذعورة نحيفة : ياماما . ألتقطها بكفي ، وأواصل الهبوط إلي السفح ، ولا أموت . تملصت من كفي ووقفت على الأرض ، نفضت الفزع عن ريش جناحيها واستردت كبرياءها ثم قالت بابتسامة صغيرة : ألم أقل لك ؟ لن تموت . أنا أعلم . قالت ذلك وأنا أنصت لدقات قلبها المتسارعة وهي تهدأ .

حل الغروب حولنا . وسرقني النوم . بسطت لها كتفي ، فسألتني وهي تعلم الجواب: ستنام ؟ . قلت : نعم . تصبحين على خير . تنام هي الأخرى واقفة ترتجف ، لكنها كاي كناريا لاتنام طويلا ، تستيقظ بعد قليل ، وتضم رأسي الضخم إلي صدرها ، وتغني لي : نم يا صغيري. لا تخف . لاشيء ولا أحد في الغابة يجرؤ على تهديدك . إنها الان تحرسني وتحميني . أتظاهر بالنعاس . ويدخل الليل العميق وهي واقفة بداخله كالنور. أختلس نظرة عليها ، فتنهرني بكبرياء : نم . لا تخف . ويندى كل شيء في داخلي بالحنان مثل بستان في الفجر حين أفكر أنه ليس لدي هذه العصفورة سواي وحدي .

◘ ◘ ◘

حرج خفيف

صعدت إلي الأتوبيس المتجه من الدقي إلي التحرير . ناولت محصل التذاكر الجالس كالعادة على مقعد قرب السلم نصف الجنيه وقلت له : التحرير . أعطاني التذكرة في صمت من دون أن ينظر ناحيتي . سعر التذكرة ربع جنيه. انتظرت أن يرد إلي البقية ، لكنه مال برقبته على الفور في اتجاه باب الأتوبيس يتابع الصاعدين وهو يطرق خشبة التذاكر بقلم . محني برأسه وكتفيه وظهره في قوس ناعم ، استند بمرفقيه على مستطيل خشبي مرتفع أمامه وفرد ذراعيه باستسلام وهدوء ، وجهه مدبوغ من شمس كل يوم ، منعزلا عما حوله بيأس صاف، فبدا كشخص ألقي به إلي قاع بئر بعيدة وظل وحده إلي أن فقد الأمل في كل شيء، فكف عن إرسال صوته للعالم ، وانصرف إلي نفسه مثل يمامة تنقر ريش قلبها في صمت .
لم أرفع عيني من عليه ، وشعرت رغم أن وجهه في ناحية أخرى أنني في مجال دائرة إبصاره وأنه يحس بنظرتي. تيقنت أنه ينتظر أن أنسي أو أتناسى بقية المبلغ . بالنسبة لي ربع الجنيه لا يعد نقودا ، لكن عدة أرباع جنيهات قد تشكل عنده هو مبلغا بعد نهار عمل شاق. تراجعت للخلف وراء كتلة من الركاب ووقفت معتمدا بظهري على صاج الأتوبيس. أرسلت بصري للشارع عبر النافذة الخلفية العريضة ورسمت على وجهي تعبير الشخص السارح بأفكاره ، ليتخيل المحصل إذا استرق النظر إلي أنني نسيت الموضوع . لكن الأفكار تصبح أحيانا مثل الأرق كلما حاولت الهروب منها سيطرت عليك، هكذا أخذ شعور بحرج خفيف يروح ويأتي بيني وبين المحصل ، مثل موجة محجوزة بين ضفتين، تردها الواحدة إلي الأخرى، نغزة لم أستطع التخلص من الإحساس بها، فسارعت بالهبوط في أول محطة ووقفت أدخن في انتظار أتوبيس آخر. بعد ذلك بعدة أيام تصادف أنني ركبت مع المحصل ذاته ، ومرة أخرى لم يرد إلي ما تبقى لي من نقود . لكنني هذه المرة لم أشعر بالحرج ، بدا كأننا معارف قدامى ، أو كأن بيننا تفاهما سابقا مستقرا بهذا الشأن . تراجعت إلي جنب في الأتوبيس متسائلا أيعقل أنه يذكرني؟ . لاحظت هذه المرة أنه لا يرد بقية الفلوس للراكب إلا إذا طالبه بها وألح في ذلك . ترى كم يجني أسبوعيا مقابل هذا الإحراج ؟ . وفجأة ارتفع صوت لشاب قصير بقميص وسروال ملطخين ببقع بياض الشقق يسأله : الباقي ياعم ؟ . كررها مرتين ، فاستدار المحصل إليه غاضبا " ألم تأخذه ؟ " . وعلا صوت الرجلين في نقاش أقرب إلي الشجار، كان المحصل خلاله يقسم بانفعال أنه رد ربع الجنيه إلي صاحبه. ولا أدري كيف هبط بصر المحصل علي وجهي من بين الركاب جميعا ، فناشدني كأنني وقعت له من السماء " ألم تكن حضرتك واقفا هنا عندما أعطيته الفلوس؟ " . أشاح الشاب العامل بذراعه " لم تعطني شيئا " . استنجد بي المحصل ثانية لأشهد معه " حين قلت له خذ الباقي يا إبني ؟ ". في تلك اللحظة توقف الأتوبيس عند محطة فهبط الشاب ساخطا متذمرا . استعاد المحصل هدوءه ، ومسح بأطراف أصابعه الطويلة صلعته، وتأملني بأسف " شايف حضرتك ؟ . أنت راكب مثله لكنك لم تقل كلاما كالذي قاله ، لماذا ؟ لأنك تعرف الحقيقة " . ارتجفت وقلت أهون عليه " يا سيدي الناس كلهم

مخنوقين ، لازم نتحمل " . قال بأمل " أنت ركبت معي قبل ذلك مرة أو اثنتين، هل حدث لا سمح الله شيء كهذا ؟ ". ولمعت عيناه يدعوني ألا أخذله فهززت رأسي وأنا أتفادى النظر إليه " أبدا . لم يحدث " . تنفس براحة قائلا : " الحمد لله ، كلمة الحق طلعت مع أني لا أعرفك ولا تعرفني " . صعد راكب جديد وأعطى المحصل نصف الجنيه فناوله تذكرة ، وترددت يده في الجو قليلا ، ثم امتدت إلي الراكب ببقية المبلغ وقال يشهدني مع بقية الركاب " الحمد لله أنكم واقفون وترون" .
ابتعدت عن مقعد المحصل ، فعاد إلي عزلته وإلي مزاج اليأس الصافي العميق متوغلا في نفسه حيث لا أحد غيره .
هبطت في محطتي قرب ميدان التحرير ، وظللت واقفا على الرصيف لحظات أحفظ في ذاكرتي لون طلاء الأتوبيس ورقمه لكي لا أركبه ثانية . استدرت ماشيا وأنا أطرد صورة المحصل من ذهني قائلا لنفسي " بعد ذلك أركب المترو وخلاص ".

◘ ◘ ◘

واجب

دهش عزت حين علم من صراف الخزانة أن إبراهيم المتغيب عن العمل منذ أسبوعين يعاني من فشل كلوي ويرقد في بيته. استوثق من الصراف "إبراهيم ؟ الشاب النحيف من شئون العاملين؟". أرجح الصراف رأسه يمينا ويسارا تعبيرا عن الأسف "هو بعينه أبو خليل المحترم الذي لم يعلو صوته يوما، ولم نسمع منه سوى "صباح النور ويوم سعيد"!

وصل إلى البيت. أخبر سنية زوجته وهو يخلع بنطلونه بأن ابراهيم يبحث عن كلي. دقت صدرها بيدها "يا لهوي! إبراهيم؟ الذي زارنا بصينية البسبوسة؟ المؤدب؟!". قال "نعم. سأنام قليلا و أذهب لأزوره، حالته صعبة كما يقولون ولابد أن أطمئن عليه". أيدته وهي تغطيه بملاءة خفيفة "واجب".

بعد المغرب كان يقف أمام باب شقة إبراهيم يدق الجرس. فتحت له بنت نحيفة في نحو العاشرة. رفعت إليه عينين واسعتين و بدون أن تقول شيئا أعطته ظهرها ومشت أمامه بصندل رجالي ضخم ليس لها . تبعها عبر الصالة إل ى حجرة الصالون بدون أن يسمع صوتا في الشقة. تركته البنت في الصالون ومشت إل ى الداخل.

أحس بجو الحجرة مكتوما. الشباك مقفول . نور ضعيف من لامبة وحيدة . على سطح ترابيزة أمامه رقدت لفة قطن طبي. بعد قليل دخل إبراهيم وابنته تمسك به من كوعه إلى أن أجلسته. قربت عينيها الواسعتين من وجهه تحدق به . قعدت على حافة مقعد بين والدها والضيف.

قال مواسيا بصدق "ألف سلامة يا أبو خليل. بعد الشر" . أجابه إبراهيم بوجه غيبه الشحوب "كثر خيرك يا أفندم".

تساءل بنبرة تعجب:

- تحتاج أي شيء أنا تحت أمرك؟ لكن كيف حدث هذا؟ الفشل الكلوي لا يمكن أن يظهر فجأة من الباب للطاق؟ لابد أن الحكاية من زمن؟

- نعم. كنت أغسل كلي من ثلاث سنوات يا أفندم.

- والله ما أعرف. عمرك ما قلت لأحد! نحن زملاء. كان لازم تقول لنا.

- كان لازم أقول، لكن كل واحد به ما يكفيه من الهموم ياأستاذ عزت.

- وبم ينصح الأطباء؟

مطت البنت رقبتها ترهف السمع.

تنهد إبراهيم متعبا:

- في حالتي هذه لاينفع سوى زرع كلي جديدة. ومؤقتا اتباع نظام أكل بدون اللحم الدسم والأطعمة ذات الألياف.

- ألف سلامة. أية أطعمة هذه؟

- مثلا المانجو. الطماطم.
- الطماطم؟! يانهار أبيض! وأنا كنت أتسلى بها طوال اليوم!!. قالها عزت وأخرج قلما من جيب القميص وهو يزووم "ممم. الطماطم". والتفت إل ى منضدة على يمينه. انتزع ورقة من كراسة سجل عليها الممنوعات.
- ياأبو خليل أي شيء تحتاجه قل لي. سألتك ياسيدي لأنه كان عندي نوبة وجعتني فيها كليتي قوي. ألم فظيع يا أبو خليل! على ما أذكر الدكتور أيامها أعطاني دواء فوار. علبة بنية صغيرة لكن طويلة شوية. أظن كانت بستة جنيهات . لاء. الكذب خيبة. بسبعة جنيه وربع. وأولاد الحلال قالوا لي أيامها أنقع شعير في الماء كل يوم بالليل وأشربه على الريق. الشعير يساعد؟
جفف إبراهيم حبيبات عرق على طرف أنفه:
- الشعير حلو. آه. ملعقتين حلو.
ضحك عزت:
- ملعقتين؟! يا أخي الواحد ينقع إنشاء الله أربع ملاعق. الشعير ماليء الدنيا.
قرب رأسه من وجه إبراهيم مبحلقا فيه:
- تحتاج أي شيء قل لي. بالشرف؟ لكن أنت يا أبوخليل، أنت، بما أن أطباء كثيرين كشفوا عليك، تقدر تعرف إن كانت كلية إنسان ما سليمة أم لا؟
- ممكن طبعا .
نهض عزت واقفا وأعطى ظهره لإبراهيم. رفع الجاكتة والقميص والفانلة:
- طيب شوف. ربنا يسترك يا أبو خليل. بص. هي الكلية اليمين . لاء. دقيقة واحدة. دقيقة. أنا لامؤاخذة لما كنت أقف أمام باب حجرة النوم وظهري للمدام كانت الكلية التي على الشمال. لا. صبرك. لاء. من ناحيتك أنت تبقى اليمين.
مر إبراهيم بطرقات خفيفة من يده على موضع الكليتين وسأل بصوت واهن ضعيف:
- شعرت بألم؟
- أبدا. لا شيء تقريبا.
- يبقى سليمة بإذن الله.
اعتدل عزت ناحية إبراهيم . حشر الفانلة والقميص داخل البنطلون . انتبه لوجود البنت فقرصها من خدها مبتسما لإبراهيم:
- ربنا يخليها لك يا أبو خليل.
عاد إلى الكرسي وألقى برأسه للوراء مغمضا عينيه.
فزت البنت من مكانها تتوسل لوالدها:
- الشوربة تبرد يا بابا!
ارتعشت على وجه إبراهيم ابتسامة شاحبة.

عاد عزت للحديث:

- يا أخي حاجة عجيبة. أنت كشفت بنفسك، ليس بي شيء و الحمد لله. لكن يا أخي أتوهم العياء ما إن تفتح سيرة مرض! غريبة.. أليس كذلك؟! يمكن حالة نفسية؟ الان مثلا أشعر بدوخة؟!. هز عزت رأسه يختبر مدى دوخها. قال:

- وأحس بهبوط. تصور؟! – ونظر للبنت - والنبي ياعروسة كوب ماء بسكر لعمك عزت.

نهضت البنت. عقدت يديها بغضب عند بطنها. اتجهت للمطبخ وعادت بقدح ناولته له.

قال عزت:

- التوهم حاجة صعبة فعلا يا أبوخليل. ألقى عندك مسكن؟

قال إبراهيم وهو يتنفس بصعوبة:

- المسكنات التي عندي للحالات الشديدة.

- لاداعي إذن، ممكن فيتامين؟

أخرج إبراهيم زجاجة من جيبه. ناوله حبة فابتلعها وتمهل قليلا:

- الحمد لله. الآن أفضل. راحت الدوخة. تقريبا.

نهض عزت ودس الورقة التي معه في جيبه:

- بحاجة لأي شيء؟ قل. لكن بالنسبة للشعير أمشيه على طول؟

- نعم. خلي الشعير على طول.

بسط عزت يده لمصافحة إبراهيم:

- كله على الله. أمر عليك بعد أسبوع نشوف الحالة. ولو أني والله أعلم أنه توهم!

أحكم إبراهيم شالا صوفيا حول خصره . مد كفا مرتعشة . غمغم بصوت منهك:

- مر خلال اسبوع..

انحنى عزت عليه يستوضح الكلام "خلال أسبوع؟". استجمع إبراهيم قواه بالكاد متمتما "نعم. أسبوع".

- بإذن الله. سآتي لا تقلق. والله سآتي لا تحمل هما.

سار عزت والبنت وراءه تشيعه حتى باب الشقة. فتحت الباب لكنها لم تنتظر حتى تغلقه. استدارت مسرعة إلى ترابيزة السفرة في الصالة واختطفت من فوقها صحنا غويطا وهرولت والشوربة ترتج بين يديها والدها. تابعها عزت ببصره. استدار يهبط على السلالم قائلا لنفسه "اطمأننتُ عليه. واجب".

◘ ◘ ◘

باب مغلق

في شقة صغيرة بالطابق الأول من عمارة في حي الظاهر سكن الأستاذ موريس المحاسب في أحد البنوك مع زوجته مدام جانيت التي تعمل في مدرسة تعليم لغات أجنبية . الإثنان تجاوزا سن الإنجاب دون أن ينجبا ، لكنهما قانعان بحياتهما التي تمضي في هدوء وتتخللها نزهات وزيارات يوم الإجازة . في العمارة محمود البواب الذي جاء من أسوان منذ زمن وعاش أسفل السلالم وحده مع ابنته الصغيرة هدى التي كانت تشتري للسكان وخاصة لمدام جانيت الحاجات من المحلات الواقعة أمام العمارة . موريس وجانيت – المحرومان من الأولاد – أحسا بميل وبعطف على البنت الصغيرة التي لم تكن تطلب شيئا حين تعود إليهما من المحل وتكتفي بابتسامة واهنة، سعيدة بكل ما يعطى لها، سواء أكان ورقة نقدية أم نصف رغيف خبز بداخله قطعة لحم . في أوقات المغرب كان يحدث أن تأتي هدى بشاي أو خبز للأستاذ موريس، وتكون الشقة خالية من الضيوف، فتقول لها مدام جانيت : اقعدي يا هدى استريحي وأنت طالعة نازلة طول النهار . تجلس هدى على حافة الفوتيه ، كأنها تخشى أن تجلس عليه كله، تبحلق في التلفزيون بصمت، فإذا قدمت لها مدام جانيت قطعة كيك صغيرة قضمت منها من دون أن ترفع بصرها عن الشاشة . تظل جالسة هكذا إلي أن تسمع صوت والدها ينادي عليها لأن أحد السكان في الطابق الثالث أو الرابع يطلب شيئا من المحلات ، حينئذ تثب ، وتهرول ، وتغمغم من عند الباب وهي تنصرف بكلمات شكر غير مفهومة . تغادر هدى الشقة فينسل لون ما من الجو ، ويحل شعور خفيف بالوحدة والأسف في الصالة، وعلي كسوة المقاعد، ويتفادى موريس وجانيت أن تتقاطع نظراتهما ، إلي أن ينطق هو ورأسه فوق الجريدة بعبارة ما، ليس لها معنى خاص، و تؤكد هي على كلماته وعيناها سارحتان : طبعا . طبعا . تنهض واقفة : أعمل لك شاي؟ . وينظر كل منهما إلي الآخر ، وينقل بنظرته مشاعر مختلطة من ذنب وغفران وعرفان لأنهما مازالا معا ولأن أيا منهما لم يقل للآخر أبدا إن الحياة موحشة .

في يوم آخر تطرق هدى الباب ، وتجلس على حافة الفوتيه أمام التلفزيون تتفرج بفيلم كوميدي قديم، تأكل مما يقدم لها ، وفي تلك الأثناء تقيس عليها مدام جانيت فستانا قديما ضاق على نجوى بنت أختها ، وتفرح هدى ، وتنهض بعد ذلك وتساعد مدام جانيت في غسل الصحون ، ثم تنام على الكنبة في الصالة حتى الصباح .

أبوها لم يجد مشكلة في مبيتها المتكرر، فشقة موريس وجانيت قريبة منه في الطابق الأول بجوار السلم ، والأستاذ موريس رجل طيب وكبير في السن .

كل يوم أربعاء يتجه أبو هدى إلي مستشفى قصر العيني لغسيل كليته، ويعود منهكا أصفر الوجه يرقد على فرشته وهدى تناوله الماء والخبز، هكذا رجع هذه المرة ، لكنه بعد أن رقد ساعتين يئن تحت السلم فارق الحياة . وانتبه سكان العمارة فجأة إلي أنهم لا يعرفون لمحمود البواب عنوانا ولا أقارب ، ولم يكن يشير لأصله سوى أبناء بلدته العابرين، الذين كانوا يظهرون بحثا عن عمل ، فيشربون معه كوب

شاي على الدكة أمام مدخل العمارة ويستمعون لنصائحه ثم يرحلون. الحاج شفيق قام بجمع تبرعات من سكان العمارة وتولى مع الأستاذ موريس إجراءات الدفن. في المغرب ظلت هدى واقفة تمسك قبضتاها الصغيرتان بالسور الحديدي لسلم العمارة، رأسها مدلى تنظر إلي الفرشة التي كان ينام عليها أبوها تحت وتبكي . تواسيها مدام جانيت وتجذبها لتدخل الشقة ثم تيأس منها فتتركها وتعود إليها بعد ساعة إلي أن وجدتها نائمة تقريبا وقد أسندت خدها إلي حديد السور فسحبتها من يدها إلي الداخل . بقيت هدى في الشقة ، وموريس وجانيت يطيبان خاطرها كل يوم بالكلمات وقطع الحلوى حتى كفت عن البكاء ، وبدأت تختلس النظر إلي لقطات من أفلام التلفزيون وهي تمسح أنفها بكمها. وحين صارت إقامة هدى عند الأستاذ موريس أمرا مسلما به ، اشترت لها مدام جانيت من ممر الراعي الصالح فستانا وحذاء جديدين، وبدأت تخرج معها وتمسك بيدها بحرص وهما تعبران الشارع، وبعد مدة أخذت جانيت تفكر في وضع سرير لها في الحجرة الصغيرة ، وحين مضى على وجودها شهر كامل قالت جانيت لموريس بحنان : إيه رأيك لو أدخلنا هدى مدرسة قريبة ؟ .

مساء ذلك اليوم عرج موريس على صيدلية بركات المجاورة ليشتري علبة أنسولين، فغمزه د . مصطفى الصيدلي وهو يفتش عن الدواء بسؤال عابر : أخبار البنت هدى إيه يا أستاذ موريس؟ مش الحمد لله بخير؟ . لم يتوقف موريس عند السؤال طويلا ، وأجاب : الحمد لله . ماشي الحال . وبعد يومين وجه الحاج عصفور صاحب محل العطارة السؤال ذاته إلي موريس لكن بنظرة ثقيلة باردة جعلت موريس يتساءل : إيه الحكاية؟. شخص ما في الشارع نكش موضوع هدى قائلا " موريس أخذ البنت الصغيرة في بيته وح يخليها نصرانية ، ح يربيها على طريقتهم!"، وتواثب الكلام من محل المكوجي إلي صاحب المخبز ومن دكان العصير إلي المقهى ومن بائعة اللبن إلي داخل البيوت. في نهاية الأسبوع سدد الجزار وهو يقطع فخذا بالساطور نظرة عداوة إلي موريس وطرح عليه السؤال بنبرة أقرب إلي المساءلة منها إلي التساؤل . هذه المرة أدرك موريس المقصود بالكلام، فبهت وتلجلج قائلا " الحمد لله" وأسرع منصرفا. في اليوم التالي قرر موريس أن يستشير لطفي صديقه وزميله في البنك ، فنصحه على الفور بطرد البنت قائلا "بقاؤها عندك ممكن يعمل لك مشكلة في الشارع والمنطقة كلها" .
جزع موريس " أطردها إزاي ؟ دي طفلة ؟ ومالهاش حد ؟ " . فرد عليه لطفي " سرحها ، شوف لها حد غيرك تقعد عنده " . بسط موريس كفيه بحيرة متألما " لكن البنت بتحبنا أنا وجانيت ومستريحة معانا،كمان احنا.. " . قاطعه لطفي بحزم " سيبك من حكاية الحب والراحة دي ، المسألة أكبر من كده يا موريس".
في طريق عودته أحس موريس أن حجرا ثقيلا يهوي بقلبه فرفع بصره إلي السماء الغائمة بنظرة عتاب ورجاء ، وما أن دخل الشارع حتى شعر بالأعين تلاحقه في صمت ، تترقب قراره ، وتحثه عليه ، وعندما اقترب من محل الجزار خرج له صبيه ودفعه في كتفه بشكل كأنه غير مقصود وتابع سيره .

جلس موريس في الصالة يسأل نفسه كيف يطرد طفلة صغيرة بلا أهل ولا سند؟ وماذا يقول لجانيت ؟ وللبنت ؟ .
في الأيام التالية أخذت كلمات الغمز واللمز من الشارع تصك أذنيه بقوة أشد، وتذكر كلام لطفي ، فحكى لجانيت كل شيء . استمعت إليه جانيت واقفة بوجه مخطوف باهت ولم تقل كلمة . جلست على حافة السرير وبكت طويلا بصوت مكتوم ثم نهضت وجففت دموعها بيدها واتجهت إلي المطبخ . نادى موريس هدى فأسرعت إليه " نعم يا عم موريس " ووقفت أمامه منتظرة . مط موريس شفته السفلى ، وشبك أصابع يديه ولم يجد ما يقوله للبنت الصامتة . أخيرا استجمع موريس شجاعته وشرح لها بقدر ما يمكن لطفلة أن تفهم أن عليها أن تغادر الشقة . البنت الصغيرة في الفستان الأوسع والأطول مقاسا عليها بكت ومع أنها لم تظهر من قبل عنادا أو تشبثا بشيء إلا أنها هزت رأسها هذه المرة " لاء ". وأعاد موريس ماقاله بكلمات أخرى فاستغربته :" ح أمشي فين ؟ أنا ما أعرفش حد ، ومدام جانيت قالت لي ح أرتب لك الأوضة الجوانية ؟" وحسما للوضع هرولت هدي إلي جانيت في المطبخ " الحقي ..عم موريس بيقول لي أمشي !". وأشاحت جانيت بوجه متصلب كأنها لم تسمعها متشاغلة بدعك الأطباق بعصبية .
في اليوم الثاني ، والثالث ، والرابع ، كرر موريس لهدى ما قاله من قبل ، وأوضح لها إنه يحبها مثل ابنته بالضبط ، بل هي ابنته . لكن هدى لم تعد تعير كلماته أي اهتمام ، تسمع ما يقوله وتهز رأسها " لاء " وتنصرف إلي الصالة تراجع ما علمته إياها مدام جانيت من حروف الكتابة أو تتفرج على التلفزيون. مرة وأخرى ، ثم لم يجد موريس بدا من جذبها بقوة من ذراعها وجرجرتها خارج باب الشقة . البنت خارج الشقة ، ملتصقة بالباب المغلق ، تخمشه كالقطة وتبكي : أنا زعلتك في حاجة ؟ والنبي دخلني . دخلني والنبي ياعم موريس. تفر دموع موريس وراء الباب المغلق يقول : ما أقدرش يا بنتي .. والعدرا ما أقدر .
والنبي ، والعدرا ، والنبي . والباب مغلق وخلف كل ناحية شخص وحيد بحاجة للآخر .

◘ ◘ ◘

الطابق السابع

في الثامنة من عمره. توفى والده فانكسرت زهرة الحنان من أمه. ينام على سرير ضيق ووجهه إلى الحائط يكلم الظلال على الجدار حتى يغمره النعاس. يذهب إلى المدرسة. يلعب على سطح البيت أو في الشارع. يفكر في الطابق السابع. النزهة الوحيدة في حياته الصعود إل ى شقة الجيران، عندهم لا يمد يده إل ى لقمة لكنه يرى الطعام. لا يتكلم لكن يسمع الضحك. لا يطمئن إلا أن السكينة حوله تشمله، ويغدو صامتا يتشبع بالنور من حضور فريال.

الطابق السابع. لايصعد إلا بعد أن يتهيأ. يسرح شعر رأسه. يشد أطراف البنطلون الشورت على فخذيه. يمر بطرف أصبعه مبللا بريقه على جلد الصندل. وحين يشعر أنه أصبح محاطا بهالة يخرج ببطء من باب الشقة صاعدا إل ى الطابق السابع. يرتقي الدرج ببطء. مع كل درجة يملؤه أمل. يصل ويجد نفسه أمام الباب فيشعر أنه صبي آخر غير الذي كان. يتمهل. يسحب نفسا عميقا ثم يطرق الباب.

في أغلب الأوقات كانت هي التي تفتح له. تنظر إليه بفرحة كأنما وجدت كنزا صغيرا. تجلس القرفصاء عند عتبة الباب المفتوح. تمسك خصره بيديها الاثنتين. تقول له "جئت؟". تغمر وجنتيه بقبلات حارة متدافعة. تسحبه من يده إل ى داخل الشقة. تصيح في اتجاه المطبخ حيث أمها "مازن ياماما". يسعده الإعلان عن مجيئه ويشعر أنه صبي آخر.

عادة تجرجره إل ى البلكونة التي تطل على صالة سينما صيفى مكشوفة. تجلس على كرسي فوتيه. يقعد على كرسي أمامها. تنحني نحوه. تمسك كفيه الصغيرتين ترجهما بأصابعها لأعلى وأسفل . تحدق بعينيه طويلا بحنان فياض. تسأله بصوت عميق "من تحب؟". تلهب السخونة وجهه ويتدحرج اسمها من فمه على مقطعين "فر.. يال". تضمه وتحتويه بصدرها وكتفيها الدافئتين "أنت حبيبي يامازن". تسأل وبسمة في عينيها "ستحبني دائما؟ دائما؟". يهز رأسه أن نعم لأنه لا يعرف كلمات لما يشعر به.

تقول "خل عينك على الصالة لكي لا تطب ماما علينا فجأة". تخرج سيجارة من جانب الفوتيه. تشعلها. يرفع عينيه نحوها كأنما منحه ذنب التدخين حق تسديد نظرة مباشرة. يتملى من وجهها المشبع بحرارة الشمس والشباب. يلمح حمالة قميص النوم على منزلق كتفها. تصفف شعرها خلف أذنها وتتأمله كأنما ضبطته. تسأله "عارف أني سأتزوج عما قريب؟". يطرق في صمت. تمسك يديه من دون أن تقول شيئا وتنظر إليه برصانة. تقول "هذا لازم. فاهم؟". تضغط يديه بين كفيها بقوة. ترتجف كفاه الصغيرتان ودمعه يأتي من بعيد.

بعد نحو شهر احتفلوا بعرسها على سطح البيت. أضاءت الكلوبات السطح فأصبح الليل كالنهار. صدحت الأغنيات بصوت مرتفع، وتتابعت أقدام المعازيم على السلالم صاعدة إلى أعلى.

لكنه لم يصعد. ظل جالسا وحده في البيت حتى جاءته أختها تقول له "طنط فريال تقول لك إطلع". صعد. مع كل درجة كانت الضوضاء والصيحات المرتفعة تسد أذنيه. توقف عند الباب المفتوح على السطح بين أقدام رجال ونسوة ممتلئات. رآها جالسة في "الكوشة" في فستان أبيض بجوار رجل غريب. لبث مكانه يتطلع إليها من بعيد مترددا لا يتقدم. لمحته فوثبت نحوه وفي عينيها الفرحة التي كانت تستقبله بها دائما. انحنت عليه وهمست بصوتها العميق معاتبة "أتتركني يوم زفافي؟". قبضت على كفه وجرجرته. أجلسته على الكرسي بجوارها وأخذت تغمر كتفيه بقبلاتها وتربت على رأسه بحنان.

اختفت فريال. لم يعد ثمة طابق سابع. وخاف إذا سأل عنها أن يعرف الآخرون أنه مغرم. وظل يتمتم باسمها مشطورا "فر.. يال" وهو في العشرين، وفي الأربعين، وفي الستين من عمره. انزلق من محبة لمحبة، ومن عطر لعطر، بدون أن يفهم ما الذي حدث له في الطابق السابع.

◘ ◘ ◘

بط أبيض صغير

من قبل كنت أتابع كل شئ ، ثم توقفت عن متابعة أي شئ . توقفت منذ شهور طويلة عن شراء الصحف ، جميع الصحف . لم أعد أفتح التلفزيون . توقفت عن توقيع بيانات الاحتجاج السياسي ، توقفت عن الكلام فيما يحدث حولنا . صرت أتسقط أخبار الأحداث المهمة من أفواه معارفي خلال المكالمات الهاتفية ، أو اللقاءات التي تحدث بالمصادفة في شوارع المدينة. القصف اليومي لمدن فلسطين أحالها لشجرة عيد ميلاد تزينها بيوت صغيرة تتوهج نوافذها بالموت، وجعلني أقول لنفسي لاشيء يتغير إلي الأحسن . أحيانا نادرة كان الأمل يتواثب وينقر شباكي ، فأهمس لروحي أنني مخطئ ، ولابد أن ثمة ما يتحرك نحو الأحسن ، لكن ما أن يبدأ القصف من جديد حتى يفر الأمل بجناحيه الرقيقين مذعورا من الدوي والدخان الأسود . يوما بعد يوم توقفت عن متابعة أي شيء ، لكنني بحكم العادة المتأصلة كنت أفتح التلفزيون من وقت لآخر أكتفي بمشاهدة مقدمة نشرة الأخبار التي تستغرق نصف دقيقة ، أشاهدها بروح عدائية مثل شخص يدافع عن نفسه ضد الأنباء السيئة ، وخلال نصف الدقيقة تلك تتدفق نعوش الأطفال الفلسطينيين إلي الشاشة، مثل ماء رفعت عنه السدود مرة واحدة ، من شاشة التلفزيون إلي المنضدة وإلي أرض الصالة في بيتي ، نعوش صغيرة ، تهرول نحوي مرفوعة على أكتاف ورؤوس الآباء المحنية وتختبيء تحت الأرائك والمقاعد قبل أن تشن عليها غارة أخرى . أغلق التلفزيون بسرعةوأندم أنني فتحته . لكن أكوام الأطفال التي تسربت من الشاشة تكون قد شغلت كل فراغ في شقتي . يتطلعون إلي ببراءة وعتاب، برجاء أن أغفر لهم أنهم احتموا بمنزلي من غير استئذان ، وشغلوا كل مساحة شاغرة بين قطع الأثاث في الصالة وفي الردهة الممتدة نحو الحمام والمطبخ وفي غرفتي النوم والمكتب . أقف مكاني مرتبكا ، لا أدري ماذا بوسعي عمله. يطمئن الأطفال في قمصانهم الحمراء قليلا ، ويستريحون من الجحيم ، يألفون المكان ، ولا يغادرون شقتي ، لأن الدنيا في الخارج مرعبة . أنهض من مقعدي لأمضي إلي حجرة النوم فيتحركون في أعقابي مثل سرب من البط الأبيض، يتعثرون ما بين قدمي برؤوس مشجوجة ، فوق كل رأس منها شريط معقود من قماش أبيض يربط الفك السفلي لكي لا يتدلى ساقطا في الهواء .
صفوف من البط الأبيض الصغير تسكن معي منذ شهور طويلة ، وتتبعني كأنما تخشى أن تفقدني ، تتنقل ورائي من حجرة لأخرى ، تسارع بالتكدس حول قدمي في المطبخ ، وحين أهم بمغادرة المسكن يقف البط الأبيض الصغير عند باب الشقة صفوفا ، يمط رقابه النحيلة الطويلة لأعلى، يتفحصني بصمت ، ينحرف برأسه قليلا ، ومنقاره السفلي مربوط بقطعة القماش إلي رأسه ، يتطلع إلي ، لايدري إن كنت سأعود إليه أم أنني سأتخلى عنه .
أرجع في المساء ، وقبل أن أفتح باب الشقة أسمع صوت اصطفاق الأجنحة وراء الباب ، أفتح وأدخل بين خفق أجنحة البط الأبيض، وفي جو الصالة يضطرب

الصياح ، وتسبح عيون مغلقة ، وكراسات ، وأقلام ، وصنادل صغيرة . أخطو بين الصفوف البيضاء محاذرا نحو حجرة المكتب، والصفوف تتدافع ورائي ، أتوقف أمام مدخل الحجرة ، وألوح لها بيدي لكي ترجع، أريد أن أصيح فيها ، لكنها تظل واقفة ، صامتة ، لاتحيد بعيونها عن وجهي وكتفي وصدري .
في الليل يملأ البط الأبيض كل موضع في حجرة نومي ، ينعس على صوان الملابس ، وأعمدة الستارة ، وحافة النافذة ، وأطراف سريري ، فإذا حركت ذراعي أو تقلبت على جنبي ارتطمت به ، أنظر إليه ، فيحدق في بصمت ورهبة وأمل .
منذ زمن يلازمني شعور مضن أن على أن أعيد تلك الكائنات البيضاء الصامته إلي هيئتها الأولى ، إلي بشراتها الغضة ، وأمهاتها ، ووقفاتها أمام فاترينات محلات الألعاب . أقول لنفسي على بكل ما أوتيت من قوة أن أفك السحر الذي ربطها في صورتها هذه . ولم أكن أدري ما العمل . أتجه كل يوم إلي عملي في مكتب البريد، أملأ استمارات التحويلات المالية من مدينة لأخرى ، وأسمع الناس يخاطبونني كأن أصواتهم قادمة من تحت الماء ، ودوي القنابل يطغي على كل شيء . لكنني أسد أذني وقلبي بإحكام لكي لا أرتكب غلطة في عملي ، وأستمر في توقيع الأوراق، وفي الظهيرة أغادر المكتب وأتجول في الشوارع القريبة قبل أن أتجه لمنزلي . أعود ، أفتح الباب ، وأنا أعلم مقدما ما ينتظرني . الأجنحة البيضاء التي تضرب في الهواء ، والريش الخفيف المتطاير في الجو ، وتلك النظرات ، والمناقير المربوطة بقطع القماش . يواتيني شعور أنني لم أكن في العمل ، لكنني كنت أفر من كل هذا ، مثل جندي تسلل من موقعه في تل مشتعل إلي غابات بعيدة . يعزيني البعض بأن الحياة مهما كان لا تتوقف. لكن لماذا أحس بهذه المرارة وأنا في عملي ؟ أو حين ألتقي بالأصدقاء القلائل؟ أو عندما أشرب كوب ماء وأجد صفوف البط الأبيض تتطلع إلي بنظرة مبهمة ؟ أحدق فيها هاتفا ـ وهل أنا المذنب ؟ هل أنا الذي يلقي بالقنابل على الأطفال؟!
منذ زمن طويل توقفت عن متابعة كل ما يحدث . كل ما يشغلني الآن هو صفوف البط الأبيض التي تواصل نموها في مسكني ، وتتخبط حولي ، وتمنعني من التنفس أو تناول الطعام براحتي . الآن وقد حل منتصف الليل نهضت وربطت فكي السفلي بأعلى رأسي بقطعة قماش أبيض، ووقفت متجمدا بين الصفوف البيضاء ، ورفعت في الضوء الباهت رقبتي النحيلة لأعلى ، ومشيت معها في الحجرات الفارغة ، أحجل بصمت ، على أمل أن تدق الباب علينا يد بشرية .

ـ من مجموعة " كناري" ديسمبر 2010

◘ ◘ ◘

إيمى

كانت إيمي صغيرة الحجم ، دقيقة ، قصيرة ، نحيفة ، وجهها مستطيل مضغوط من الجانبين كأنه شمعة وحول رأسها كان ثمة نور خفيف، عيناها واسعتان، كعيون الإيرانيات ، معبئة بسواد ساحر عميق، يعلوهما حاجبان مرسومان بدقة كهلالين غاية في الجمال . لكن إيمي لم تكن تنظر مباشرة في عيني من يحدثها إلا نادرا وللحظة قصيرة تعود بعدها فتطرق برأسها وتحني كتفيها النحيفتين المضمومتين لأسفل وهي تضفي على نفسها هيئة من ينصت باهتمام وأدب . لم تكن تنظر لأحد مباشرة ، بل ولم تكن تنصت لشيء . اكتشفت ذلك فيما بعد ، حين كنت أحدثها ذات مرة ، وتوقفت أتأملها متشككا في أنها تسمعني ، ثم لزمت الصمت ناظرا إليها وهي مازالت تهز رأسها كمن ينصت ، وعدت أكلمها لكن في موضوع آخر دون أن يثير ذلك أي رد فعل لديها . وحتى حين كانت إيمي تنهض وهي تضم طرفي الجاكت الخفيف ، وتمد يدها مودعة ، كنت أشعر أنها لا ترى أي شيء حولها . كانت مستغرقة في نفسها طوال الوقت تحاول أن تتسمع في أعماقها غمغمة بعيدة ، صدى خافت لصوت مهشم يلوح ويختفي . حين كانت إيمي تأتي إلي في أيام الشتاء كان أول ما تطلبه أن أغلق بطارية التدفئة لأنها تصدر أزيزا خفيفا ، وفي أيام الصيف ترجوني أن أغلق جهاز التكييف لأن الصوت الضعيف جدا الصادر عنه يقلقها ، ثم كانت تسألني أن أغلق جهاز التلفزيون وأحكم إغلاق النوافذ لأن الأصوات القادمة من الشارع توترها . وتجلس بعد أن أنفذ كل ما طلبته ترهف السمع ، ثم تقول : هل هناك جهاز ما يعمل في المطبخ ؟ . أقول : لا . تقول : لأنني أسمع صوتا . أقول : ربما من عند الجيران . وفقط عندما تختفي كل الأصوات ، تجلس إيمي وتهدأ وتطرق برأسها تنصت في أعماقها لغمغمة من عالم آخر، تنصت بكل كيانها ، مثل شخص غائب في صلاة ، كأنما تبتهل إلي الغمغمة أن تخرج من الضباب .

قلت لها مرة ونحن نتغدى في أحد المطاعم : أنت ياإيمي لا تسمعين ، لا تنظرين ، لا تبصرين . لست هنا . ضحكت ضحكة مسحوبة مثل حد سكين : ما الذي تقوله ؟ كيف أعيش إذن ؟ . قلت لها : تتركين هذا الإنطباع يا إيمي . سكتت ورأسها مطرق ثم قالت دون أن تنظر إلي : أتذكر أبي الذي توفي مبكرا ، كان أغلى ما حياتي . يخيل إلي طيلة الوقت أنه همس لي بشيء ، لكني لم أسمعه جيدا حينذاك أو سمعت ولم أفهم لأني كنت صغيرة في السادسة وأنه مازال يريد لكلمته أن تصلني . حتى الآن ، أتحدث إليه ، أستأذنه قبل أن أقوم بهذا العمل أو ذاك، أطلب موافقته ، وحينما أخطيء أو أذنب أسأله بدموعي في الليل أن يغفر لي . أتساءل أحيانا ألم يحن الوقت لكي يتركوه ليرجع إلي عالمنا بعد أن بقى هناك سنوات طويلة جدا ؟ ألا يكفي كل هذا الزمن ؟

كنت متيما بإيمي ، أحاول أن أنتهز الفرصة لأعترف لها بحبي ، فأمسكت بيدها ونحن جالسين وقلت لها بصوت مرتجف : إيمي .. أنت ترجين كل كياني رجا

متصلا دون توقف ، دون لحظة هدوء ألتقط فيها أنفاسي . ما أن أقترب من أي شيء حتى أكتشف أنني أحبك، حين أتجه للمطبخ وأضع إبريق الشاي على النار أجدني أحبك . حين أستلقي لبعض الوقت على السرير أجدك ملء قلبي ، عندما أرفع سماعة التلفون ، وحينما أخلع قميصي ، وأنا أفتح باب الشقة ، وحتى يدي وهي تغسل وجهي تذكرني أني أحبك . كأن العالم اختزل وجوده إلي مجرد سهم كبير يشير إليك . قولي لي كيف يمكن لكل ما ألمسه أن يتذكرك ويجعلك أمامي ؟
أمسكت إيمي بيدي ودعكتها بقوة وهي تنظر بعيدا وقالت : نعم . هذا هو الحب . أنا أعرفه .
افترقنا على أن نلتقي بعد ساعتين في ميدان التحرير لنتجه بعد ذلك لمشاهدة عرض مسرحي . كان موعدنا في السادسة مساء في الساحة الممتدة أمام مبنى المجمع الضخم . لكن ازدحام الطرق أخرني عنها نحو ربع الساعة ، وحين بلغت الميدان كان يضج بالنداءات وضوضاء السيارات وصياح المارة . شاهدت إيمي من بعيد ، رحت أخطو في اتجاهها بخطوات سريعة ، وفجأة رأيتها تتلفت متطلعة إلي الجو حولها وهي مذعورة ، ثم أخذت تلوح بيديها كأنما تصد رصاص أصوات ينهمر عليها من كل ناحية ، وأمسكت رأسها بيديها، وضغطت على إذنيها بقوة ، وقد تشنج وجهها . هرولت ناحيتها ، كانت تترنح نحيفة رقيقة كأنها بقية حب ، واستولي على فزع لم أعرفه من قبل ، ولحقت بها قبل أن تهوي على الأرض ، أمسكتها من كتفيها ، وأنا أصيح فيها : إيمي . هززتها بقوة ، ففتحت عينيها ، هتفت باسمها ثانية : إيمي . فحدقت في بنظرة مثل الشهقة وتمتمت بحرارة غير مصدقة : جئت !
تلك كانت المرة الوحيدة التي رأتني فيها إيمي !

◘ ◘ ◘

نظام جديد

كان د . فخري الفيومي ينظر لمن يحدثه نظرة شك عميق ، كمن يقلب ببصره بضاعة مريبة ، أحيانا نادرة كان يجازف سائلا بصوته المهذب الخفيض :
ـ حضرتك نظام جديد ؟
فيجيبه الآخر بحيرة :
ـ نظام جديد ؟! ماذا تعني ؟
فينكس د. فخري عينيه على نظرة باسمة مريرة كمن يقول " دعك من هذا اللؤم " ويغمغم :
ـ النظام الحالي ؟
في أغلب الحالات كان يتلقى ردا واحدا مصحوبا بدهشة :
ـ ماذا تقصد ؟ لا أفهم؟
فيزووم د . فخري ويصمت طاويا نفسه على حيرته، ويغير موضوع الحديث .
بدأت حكاية الشك هذه عندما فوجئ د . فخري باستدعائه إلي المباحث العامة منذ نصف السنة ، كان ذلك عقب اجتماع حاشد في الجامعة جرفته الحماسة خلاله فقال كلمتين تجاوز بهما سقف المسموح . وندم بعد ذلك أشد الندم ، وقالت له زوجته : يا فخري أنت أستاذ كبير عندك كتبك وأبحاثك مالك ومال كلام الشباب؟! . فأجابها : عندك حق .
وفي اليوم المحدد لاستدعائه وصل إلي مبنى الداخلية في الموعد المعين، واستقبله ضابط شاب لبق قاده بترحاب إلي حجرة ضيقة ثم قال له بنبرة آسفة :
ـ يا دكتور .. آسف جدا .. نحن مضطرون إلي اعتقالك !
تغيرت ملامح د. فخري على الفور ، فالاعتقال آخر شيء خطر له . كان أقصى ما توقعه أن يطرق معه عميد الجامعة موضوعا عاما ويدس في ثنايا حديثه عبارة لوم وتحذير ، أما الاعتقال ؟! مد ساقيه وجال بعينيه في جو الحجرة وهو يشعر بهبوط . وحدث نفسه " أيعقل أن تهدم كلمتان عابرتان حياة كاملة ؟ " . فكر في زوجته وولديه كمن يودعهم ، وفي حجرة مكتبه وأبحاثه ، وصعبت عليه نفسه ، وحاول أن يتذكر من الذي جرجره إلي ذلك الاجتماع المشئوم .
اعتدل الضابط الشاب ببسمة خفيفة كمن يصحح خطأ:
ـ لكن اطمئن يا دكتور ولا داعي للقلق .
دبت الدماء في أوصال د . فخري كمن ألقي إليه بطوق نجاة وجمع ساقيه الممدوتين واستجمع أمله :
ـ كيف ؟
ـ لأنك ستواصل حياتك كما اعتدتها .
وأضاءت وجه الضابط بسمة من يقدم عرضا سحريا ويثق بحكم الخبرة أنه سيلقى الإعجاب :
ـ أنت تتجه إلي الجامعة يوميا في التاسعة صباحا ؟

- نعم . بالضبط .
- تعود إلي البيت تقريبا في الثانية ظهرا ؟
- تماما .
- عصر كل ثلاثاء تلتقي بأصدقائك القدامى في مقهى " سهر الليالي " ؟
- مضبوط يا أفندم . المعلومات كلها سليمة .
ضحك الضابط بسرور .
- ولن يتبدل شيء من كل هذا . ستواصل حياتك كما كانت !
تجمد وجه د. فخري عاجزا عن الفهم وطلع صوته كأنما من جب عميق :
- أواصل حياتي ؟ و.. وماذا .. ؟
- كل ما في الأمر أن لدينا الآن نظاما جديدا .
- جديدا ؟ أي نظام ؟
- ألا تسمع عن سجون في الخارج تسمح لنزلائها بمغادرة السجن وزيارة أهاليهم ليوم أو اثنين ثم العودة بعد ذلك ؟
- أسمع .
- هي التجربة ذاتها . إذا كانت الثقة في المعتقلين أمرا ممكنا بحيث نسمح لهم بقضاء يوم مع عائلاتهم، فما الذي يمنع أن نسمح لهم، ليس بيوم لكن بعدة أيام ؟ بل وبقضاء فترة الاعتقال كلها في الخارج ؟!
قطب الدكتور فخري ما بين حاجبيه وتقلقل على الكرسي وسأل بريق جاف :
- وكيف يكون اعتقالي إذن؟ أقصد من الناحية الإجرائية ؟
- يكفي أننا قمنا بإبلاغك . العملية كلها ثقة .
طرف د. فخري بعينه اليمنى ثم بحلق في وجه الضابط الشاب الذي نهض واقفا وابتسم بكياسة وهو يهز يد د . فخري مصافحا :
- نحن الآن نعتمد على الضمير .
وأشار إلي باب الحجرة : شرفت ونورت . تفضل . من هنا .

***

غادر د. فخري مبنى الداخلية ، وسار بخطى هادئة دون أن يلتفت خلفه ، تمنى لو بلعته الأرض كما تبتلع الصحراء قطرة ماء فيختفي بعيدا عن المبنى . كان بحاجة إلي المشي طويلا وحده ليعيد ترتيب رأسه المشوش، فسار حتى ميدان التحرير و في الطريق برقت أمامه الكلمتان اللتان أفلتتا منه في الاجتماع . ألا يحق له أن يقول شيئا للمصلحة العامة ؟ قل ، لكن لا تتسبب في تجويع أولادك فليس ثمة مبادئ بعيدا عن بشر بعينهم. والحقيقة ؟ فرصتك لنشر الحقيقة بالعلم والتنوير أكبر طالما قدرت نعمة الحرية لكن ما جدواك وأنت رهين زنزانة؟ . مع ذلك فإنني معتقل الآن؟ نعم لكنك حر أيضا . ساقته قدماه حتى شارع رمسيس فتوقف في الميدان يرقب زحمة السيارات والبشر حائرا أيفرح بوضعه الحالي أم يحزن؟
صباح اليوم التالي راقب د . فخري زوجته وولديه ساعة الإفطار وهم يتناولون الطعام، فلم يتلمس في نظراتهم أو حركاتهم أية إشارة إلي اعتقاله، كانوا يحشون

أفواههم بالبيض المسلوق والجبن دون أن يعيروا أي اهتمام لشيء آخر . في العمل أيضا لم يتوقف أحد عند الموضوع ولو بنظرة أو سؤال عابر. في البداية أثارت تلك اللامبالاة دهشته، ثم تذكر أن اعتقاله حسب النظام الجديد يجعل من الصعب تمييزه عن غيره ، فصار يتردد على محاضراته بانتظام ويقول لنفسه وهو في طريقه إلي العمل " ينبغي أن أعيش على أساس أن شيئا لم يحدث مع مراعاة أن شيئا قد حدث ". خلال عدة شهور اعتاد د . فخري على النظام الجديد ، لكن حيرته كانت تشتد في الشارع وفي الباصات أو داخل محلات البقالة وهو يدقق النظر في وجوه الناس ، فلا يجد ما يستدل به على أن الشخص " معتقل نظام جديد " أم لا . فكف عن التحديق في ملامح الناس وأخذ ينصت إلي ما يقولونه ، فوجد معظمهم يقولون الشيء وضده ، ويؤيدون موقفا وعكسه ، يدعمون مواقع خصومهم بحرارة ، ويرحبون بمقترحات أصدقائهم بفتور، فلم يستدل على شيء ، وكان عقله يثب من ناحية إلي أخرى في تحديد وضعهم : معتقلون نظام جديد ؟ أحرار ؟ إلي أن تعب تماما فتوقف عن محاولة تمييز هؤلاء من أولئك ، واكتفى بالحذر في أحاديثه وشاعت في كلامه رصانة تضع القضايا كلها على قدم المساواة ، وقل كلامه في المقهى مع أصدقائه وصار يقضي أغلب وقته معهم صامتا ينفخ دخان النرجيلة مرسلا بصره إلي المارة . لكن الحيرة كانت تسكن أعماقه ، مثل سمكة قرش مختفية ، تثب في لحظة وتنقلب إلي نظرة شك مسددة نحو من يتحدث إليه ، فيجازف د . فخري سائلا بصوت خفيض:

ـ حضرتك نظام جديد ؟

فيجيبه الآخر بحيرة :

ـ نظام جديد ؟! ماذا تعني ؟

فينكس د. فخري عينيه على بسمة مريرة :

ـ النظام الحالي ؟

ولا يتلقى ردا شافيا .

لكن تلك الحال لم تدم طويلا ، فبعد نصف العام تقريبا تلقى د. فخري استدعاء جديدا فاتجه إلي مبنى الداخلية مرة أخرى ، وسار في ذات الردهة الطويلة الكئيبة إلي الحجرة الموحشة العارية الجدران . هناك نهض الضابط الشاب وصافحه بترحاب شديد قائلا :

ـ تفضل بالجلوس يا دكتور . لن أطيل عليك. أردت فقط أن أزف إليك نبأ سارا ..

ـ خيرا إنشاء الله ؟

ـ تقرر إطلاق سراحك !

ـ سراح من ؟!

ـ سراحك أنت .

ـ أنا ؟!

ـ نعم . صدر بالأمس قرار بالإفراج عنك مع خمسة آخرين .

جلس فخري حائرا .

ـ إذن .. أنا حر ؟

- نعم . وأرجو بالطبع أن تقدر أن ما حدث كان إجراء للصالح العام . الآن واصل حياتك كما كانت ! أنت تتجه إلي الجامعة يوميا في التاسعة صباحا ؟
- نعم . بالضبط .
- تعود إلي البيت في الثانية ؟
- تماما .
- تلتقي بأصدقائك القدامى في مقهى " سهر الليالي " عصر كل ثلاثاء ؟
- مضبوط يا أفندم .
ضحك الضابط :
- أكرر التهنئة .
وأشار بأدب إلي باب الحجرة :
- واعلم أننا الآن نعتمد على الضمير !

- من مجموعة " كناري" ديسمبر 2010

◘ ◘ ◘

وَمضْ

أمطرتْ في تلك الليلة خلال عودتي إلى البيت. توقفتٌُ من التعب والبرد ما أن لمحت مقهى امتد إلى الرصيف محاطا بشجيرات قصيرة مضاءة من داخلها. مشيت إليه. جلست في ركن دافيء. تصاعد البخار من قدح الشاي في الجو الغائم. سرح بصري في البيوت المقابلة. ثالث سماء تمطر عليَّ وحدي من غير رحاب. تلح زوجة أخي أن أتخذ لنفسي امرأة. لا تفهم أني أحن ليس لامرأة لكن لرحاب، بارتجافات روحها العنيفة المتقلبة ورقة شفتيها النحيفتين، بالليونة التي تلامس بها الأرض كأنها قطة تتنقل على وسائد أقدامها، بانهياراتها تبكي بين ذراعي، بسرور عينيها في فورة الأسى الخفيف. كانت كل شيء، برحيلها صار كل شيء أنها ليست هنا.

أفقتُ على الجرسون يرفع الكوب الفارغ من أمامي. نهضتُ ببطء. دسست يدي في جيبي أفتش عن نقود. لمحت بركن عيني شابة تهرول على الرصيف المقابل بوشاح مرفوع على رأسها. ما أن تطلعت إليها حتى توقفت في مكانها. أحنتْ رأسها قليلا. استدارت ناحيتي ببطء. رمتني من بعيد بنظرة قاسية شوهت ملامحها. وحتى في الغيم والمطر تعرفتُ إلى الوجه البرونزي الذي فتحت عيني وأغلقتهما عليه للأبد، إلى الشعر القصير على جانبي الوجه، نظرة الكبرياء تداري مرارة الوحدة. حدقت بها مبهوتا عبر خيوط رذاذ خفيف. لم تطوح الريح مسار نظرتها إليَّ ولا لهفتي وذهولي. زحفتْ بطرف قدمها تحك حافة الرصيف ببطء حتى بلغتْ الأرض ثم راحت تسحبها بتردد. اعتدلت واندفعت للأمام وهي تتفادى برك المياه الصغيرة.

هرولتُ في أعقابها. سبقتني وانعطفت بسرعة إلى شارع جانبي. بلغتُ رأس الشارع بأنفاس مخطوفة. وقفتُ أرهف السمع. لا دبة قدم ولا صدى خطوة. حدجت في مداخل البيوت بأنوارها الضعيفة. أرسلت بصري إلى الظلال والسكون في آخر الشارع. لا شيء سوى رجفة أوراق الشجر من الريح. حدقت، ومن طول ما حدقت صرت لا أرى إن كانت رحاب هناك أم أنها توارت من زمن. نسمة دارت حولي تفوح بالياسمين الذي كان يسبق رحاب وهي مقبلة كما تمهد النغمة لدخول اللحن الكبير. ملأت صدري بها. ضغطت عطرها مرة واثنتين في رئتي فجاش الحنان الذي طالما بادر لانتشالها من انفعالاتها فإذا هوى في لهيبها عجل في أعقابه حنان إثر حنان صفا لا يتوقف من عشق يفتديها. توارت رحاب ومن كثرة ما طلبها دمي جُّن قلبي ولم يلق سوى ليل فرجع إلى الظلمة بدون قمر، يمشي في ليلها الشاسع، يرف في وحشة بين مليارات النجوم، يحدق بشررها، ويرى التوقد الأخير للروح.

***

استرعت رحاب انتباهي من أول مرة رأيتها بوقفتها المرتبكة في انتظاري وتلفتها القلق. كانت ترتدي بنطلون بنيا محبوكا وبلوزة سماوية مفتوحة عند صدرها، تدلت من ذراعها حقيبة جلدية كبيرة قلما تحملها الفتيات. أنيقة على نحو يترك انطباعا بأنها أكثر تحررا من أن تقيد بمفاهيم سائدة عن المرأة والأناقة. تصافحنا واتجهنا إلى كافيه "ريش". كان عدد الحضور قليلا على المناضد من حولنا. سألتها إن كانت تود أن تتناول عشاء خفيفا فرفضت مكتفية بالشاي مع قطعة ليمون وطلبت أنا فنجان قهوة. في البداية كان في عينيها نظرة ترتج بين الفرح والقلق وعندما هدأت لاحظت أن صوتها مستقيم دقيق ينبر بأفكارها دون ليونة وأن نظرتها لا تميع. تحدثتْ باستفاضة عن عملها في الصحافة. مرت بكلمات كضربات ريشة سريعة على حياتها وأنها عانت أزمة صحية عنيفة وتجاوزتها. عندما بدا أنها قالت كل ما لديها سألتني "أنت كيف تعيش؟ كيف تقضي وقت فراغك؟ ما الذي يشغلك الآن؟". قلت لها "أبحث عن حلة كهربائية تطهو الأرز وتضبطه وحدها وفي ساعات الفراغ أقوم بالتدريس في الجامعة". ضحكت غير مصدقة "حلة أرز؟! أية حلة؟! أليس لديك من يطهو لك؟". قلت "لا". انزلقنا بيسر إلى مشكلات المواصلات وطبائع الأصدقاء وذكريات الصبا ثم الوحدة فالتجارب العاطفية. قلت لها إنني عشت طفولة فقيرة حتى أنني كنت ألصق أذني بجدار سينما أستمع إلى الأفلام. قالت إنها هي الأخرى كانت محرومة من الحنان وأن والدها توفى مبكرا لكنه يعيش معها طوال الوقت تستشيره في كل أمورها وتقف في ذكراه السنوية في الشرفة تخاطب السماء يا أبي هذي أنا ابنتك رحاب، أذكرك وسوف أذكرك، واعلم أنني مصممة على أن أعبر إليك أينما كنت.

شعرتُ وأنا أنصت إليها بقلبي يفتح عينيه على مياه زرقاء من خيالات أحلام غرقى وأنوار أقمار متكسرة. توقفت لحظة عند باب المقهى حينما خرجنا. فركت سيجارتي بطرف حذائي فسبقتني بخطوة. جلت بعيني فيما حولي قبل أن ألحق بها. بدا العالم مختلفا. كأن أحدا سكب نورا على الشوارع والأسفلت والعابرين وحتى على الهواء. سرت إلى جوارها بحذر. خفت إن أنا لمستها سهوا أو هف عليها ضوء أو هبط ظل أن تتلاشى من أمامي. أردت طوال الوقت أن أضع يدي على كتفها لأمسك بها معي هنا على الأرض.

تحدثنا والتقينا بعد تلك الأمسية في أماكن كثيرة مختلفة. كنا في مطعم سمك نتغدى. تلامست كتفانا وأنا أناولها الخبز المحمص. انبعثت بيننا حرارة في موضع التماس. خيل إليَّ أن كل ما حولنا في الم طعم من إضاءة و بشر وأصوات زخارف فرحتنا. مدت يدها إلى قائمة الطعام المغلفة بالجلد. فتحتها ثم ألقت بها جانبا. قالت "أحيانا لا أصدق أنك الشخص الذي التقيته في المرة الأولى". "كيف؟". قالت "تندفع علاقتنا للأمام بجنون حتى أني بعض الأوقات أتصور أنك محض خيال". قلت لها "الخيال واقع لكن من نوع مختلف". راحت تتأملني طويلا. سألت "هل

تستطيع احتمال امرأة عصبية مثلي؟". رأيت في عينيها دخان عذاب قديم. أردت أن أضمها إلى صدري، أربت على كتفها طويلا. قلت "أحتملك فقط للأبد". لاحت بسمة واهنة على شفتيها "لكني إذا شعرت بنفسي وحيدة أهيم على وجهي أي وقت، أبكي في الليل أو النهار؟". قلت "كانت في حياتي نساء قبل أن أجدك. عندما رأيتك أدركت أني أحببت كل واحدة منهن نصف محبة، غير أنصاف المحبات السابقة، الآن يمشي قلبي كله، بكل محباته، إليك. وتقولين هل تحتمل؟ كأنما تسألين هل أحتمل السعادة؟". مدت يدها. أمسكت بيدي للمرة الأولى. أجرت الدم من أصبعها بوخزة دبوس وفعلت المثل بأصبعي ثم سحبته وألصقت الأصبعين في موضع النزف كما يفعل الصغار قائلة "من هذه اللحظة أنا امرأتك وأنت رجلي. للأبد". لمعت عيناها ولفح وجهي تنهدها الساخن "عهد".

***

قاربت الساعة العاشرة وأنا أفتح باب الشقة. صمت و أتربة متراكمة ومظاهر فوضى الحياة بدون امرأة. تذكرت المقال الذي طالبني به د. صفوت لمجلة العلوم. دخلت حجرة مكتبي لأتصفح أوراق مشروع كتاب لأقتطف منها ما يصلح للمجلة. ثمة باب كامل عن أن المادة والطاقة صورتان لشيء واحد وأن المادة تتحول إلى طاقة موجية كالضوء والعكس. كانت هناك محاور أخرى شيقة. لم تكن لديَّ رغبة في الكتابة. أغلقت الملف على المسودات. أعدته إلى مكانه. كانت رحاب المغنطيس الذي تندفع إليه كل أعمالي الكبيرة والصغيرة. لم يكن يفلت من مجالها شيء. إذا اشتريت قميصا أفكر هل سيعجبها أم لا؟ إن ألقيت محاضرة أسأل هل ستمتدحني؟ حتى الأشياء التي كنت موقنا أنها ستغضبها كنت أقوم بها سعيدا لأن رحاب معي "ستغضب". كأنما ليس لحياتي وجود إن لم يظهر في مراياها. أخذت أنظر إلى صورتها على المكتب. كانت رحاب قد رأت الصورة في حجرة مكتبي عندما زارتني للمرة الأولى. أمسكتها من يدها أريها الشقة. دُهشت "معقول!". ثبتت عينيها عليَّ بحنان كأنما تكتشف شيئا لم تكن تثق في وجوده. لم أقل لها إنني حين أجلس لأعمل أرفع عيني من وقت لآخر إلى الصورة. أرى كل مرة في وجهها تعبيرا يلفحني مرة بحزن، مرة بأمل، مرة بغموض، كأني أرمي أحجار تنجيم صغيرة، فأقرأ في نفس الأحجار كل مرة مصيرا مختلفا. تجولتْ في الشقة حتى اكتفت. قالت "جميلة فعلا". ضحكتْ. كانت نظرة العذاب القديم تتبدد من عينيها وهي تضحك ويخرج صوتها كفاكهة صلبة تنز حلاوتها.

في الصالة كان ثمة أريكة وكرسيان ضخمان حولها. في مواجهتها أريكة أصغر. اختارت أن تجلس على كرسي منفردة. سألتها "أترغبين في كأس عصير؟". قالت "ممكن قهوة". نهضتْ واتجهتْ للمطبخ اختارت كنكة وراحت تعد

القهوة بنفسها. جلستْ. لم تأكل أو تشرب سوى قدح مياه معدنية بعد أن اطمأنت إلى أن الزجاجة لم تكن مفتوحة. فردت ساقيها أمامها وأخذت تخبط قدميها ببعضهما "سأقول لك شيئا. لقد تعرفت إلى الكثيرين من قبل وتصورت أنهم يحملون المعاني الجميلة التي أشعر بها معك واكتشفت أن كل المعاني عندهم تقود إلى السرير". ربعت ذراعيها ناظرة إليَّ بتحد "هذا شيء أرفضه تماما". حلت علىَّ دهشة ممزوجة بمرارة. هتفت بها "أيعقل أنك لا تشعرين بأن ما في نفسي أعمق مما تتحدثين عنه؟ حين تكون المرأة كومة لحم يكون الرجل أيضا كومة لحم". ارتكزتُ بمرفقي على فخذيها "أنا أحبك. والإنسان لا يفرط في قبة سماء عالية لأجل حفنة تراب وحصى". دسستُ رأسي في حجرها كأنما أود لو تلدني الآن. هدأ صوتها هابطا إليَّ "أقول لك هذا لأني لا أريد أن أفقدك. قلبي يطير إليك طوال الوقت وأراه يحترق نحوك ولا أقوى على دفع اللهب عنه". انهلت على عنقها وكتفيها بقبلاتي "لقد حافظت على حلمي بك كأني طيلة عمري كنت أخفي سرا حتى حانت اللحظة لأفشي السر". بكت. أمسكت وجهي بين يديها تقبلني. وقفت بحزم. قالت "بم سينتهي هذا الكلام؟ لابد أن نخرج من هنا. دعنا نذهب إلى أي مكان". جذبتني من يدي تشدني لأنهض. في الطريق وضعت ذراعي في ذراع رحاب. للمرة الأولى لم تمانع. جبنا محلات وسط البلد. كانت تبحث عن هدية لصديقة في لندن. ظللنا نلف حتى انتهت إلى محل هدايا فرعونية. دخلت. أخذت تقلب الهدايا من دون أن تستشيرني. أخيرا استقرت بين يديها صينية من النحاس منقوشة بالفضة راحت تتمعن فيها طويلا. حدجت في جانب وجهها البرونزي الصغير. نحن لا نجد سببا أو تفسيرا للعشق، كما لا نجد تفسيرا لهبوط شعاع برق على إنسان بعينه دون الآخرين في زمان ومكان محددين. التقيت من قبل بكثيرات جميلات لكن الشرارة لم تندلع، على العكس كانت تتوارى في العمق كأنما تخشى على صفاء لهبها أن يشوبه إعتام. الآن مع رحاب أجدني مضطربا مرتبكا مشتعلا حائرا ملهوفا ولم يسبق أن شملتني هذه الحال.

قصدت حجرة النوم. تقلبت طويلا إلى أن نمت بصعوبة. رأيت في منامي رحاب تنسل من بقعة معتمة تتقدم نحوي. تتعرى أو أنها كانت عارية. تشدني بقبضتيها الاثنتين من أطراف قميصي. تنظر إليَّ بجنون متوسلة متألمة بدون كلام. ترقد على الأرض تجذبني إليها بوجه متشنج. أنحني عليها. تغمض عينيها وتفر برأسها يمينا ويسارا. أمعنت النظر إليها. أدركت أنه ليس ألم الرغبة والحب، بل نوع آخر من ألم عميق مكتوم. تفطر قلبي عطفا. أفقت من نومي والحلم في جفوني.

قمت من سريري. وضعت رأسي تحت صنبور المياه. تطلعت إلى وجهي في مرآة الحمام. رحاب مقيمة في ذاكرتي تقتات بأعصابي. تأكل، تشرب، تخلع ملابسها، تنام، تصحو، تترك سريرها دون ترتيب. تعد قهوتها. تستدير بعنقها إليَّ مبتسمة. إما أن أنزع خيالاتها من نفسي لأحيا حياتي، أو تغدو أيامي مسرحا

لأطياف ضحكاتها. كأني معها في بحر، نحاول إبقاء رأسينا فوق الماء لكي لا نغرق، تؤرجحنا المياه. أصابعنا متشابكة تحت الشمس. يغمر الموج عيوننا وينحسر. نحدق خطفا. يعلو الموج بحياة واحدة لشخصين ويهبط بحياة واحدة لشخصين.

غلبني النعاس. قرب الفجر شعرت بومضة لون برتقالية تجري على جفني رافقها صوت يتفلت من روح أطبق عليها الصخر. رفعت رأسي من على الوسادة. شاهدت الومضة خطفا على الجدار. أخذت أقلب عيني في العتمة. لاحق بصري ذيول ظلال هاربة على النافذة. ما الذي يحدث لي؟. قمت أضأت نور الحجرة. لا شيء. هلوسة الوحدة والشوق للمستحيل.

رقدت على الأريكة في الصالة لأستريح قليلا. غطيت عيني بساعدي. غفوت وأنا أحلم أني مستيقظ أفكر في يقظتي في تلك الومضة البرتقالية. إن كانت روحا فلم لا تبين؟ إن كانت رسالة من عالم آخر فلم لا تتضح؟ أم أن الخرف قد ضرب عقلي؟

***

ذهبت إلى عملي في الصباح. في المساء قصدت عيادة الطبيب في وسط البلد. فحصني باهتمام. أحنى رأسه يكتب الدواء قائلا "أنت تطحن ضروسك بقوة أثناء النوم. تقلق منامك بنفسك فيخيل إليك كل ذلك". لم أكن واثقا من التشخيص لكني عرجت على صيدلية واشتريت الدواء. في الطريق مررت بمحل الهدايا الذي توقفت عنده رحاب ذات يوم. دخلته. ظللت واقفا متظاهرا بأني أتفرج بالمعروضات وأنا أستصفي وجه رحاب من أجوائه. خرجت.

بعد أسبوع من وجودنا في ذلك المحل سافرت رحاب إلى لندن في مهمة صحفية. لم تنقطع رسائل المحمول بيننا ساعة. كتبت لها "كل من يراك الآن في لندن يتصور أنك وحدك. لكنك تعلمين أنني أقف بالقرب منك. وراءك بخطوة، أو بجوارك، أو أتقدمك قليلا. لا يراني أحد لكنك تعرفين أنني بجوارك؟". كتبت هي "أكاد لا أصدق كل هذا الحب؟!". عادت من لندن وعانقتني بقوة في المطار وقدمت لي حزاما جلديا وزجاجة كولونيا. التقينا بعد ذلك كثيرا. زارتني عدة مرات. في إحدى المرات تمددت أمامي على الأريكة في الصالة. رأسها على المسند قدماها أمامي. وضعت وسادة صغيرة تحت رأسها. راحت تتطلع إليَّ بكسل شارد أثناء حديثنا. وقفت تتأمل بعض الكتب التي كنت اشتريتها خلال سفرها. عرضت عليها أن تأخذ منها ما تريد. رفضت ضاحكة. قالت "دعنا نغير المكان". اتجهنا إلى مائدة الطعام. جلسنا متقابلين نثرثر. وفي لحظة تطلع كل منا للآخر. تفجر الحب الذي جري بنار مكتومة. تجمدت نظراتنا مشحونة بالتوتر تستفسر إن كان الوقت قد حان. نظرات تذوب وتتماسك وتتمنى وتقاوم. أمسكت يدها. قبلت أصابعها. شعرت

أني أدخل جنة بعد جنة من كل أصبع. اشتعلنا مرة واحدة. تلاشى كل ما حولنا. لم يبق سوى كتلة من نار تدور في نور. كل النجوم والمجرات مضيئة بداخلنا. لم تكن متعة البدن اللاهبة هي التي غيبتنا عن الوعي، بل شعور مذهل بالروح تمزق الروح لتسكنها. تشقق الذكريات مندفعة إلى ذكريات. تفتت المواجع تجري إلى شبيهاتها. تكسر الأماني تتحد بأماني. اندفاق الأمل يتوحش ليلقى الأمل في الروح الأخرى.

ظللنا راقدين على ظهرينا فترة نتطلع إلى سقف الحجرة صامتين، كخارجين من حريق يتفقدان ما تركه الحريق، نخمد ما تناثر فينا من بؤر لهب. نستجمع بإدراك متطاير قسماتنا الأرضية التي ستعرفنا الدنيا بها ونحن راجعين إليها. أخيرا مالت رحاب على جنبها. وضعت رأسها على كتفي. نامت وفمها مفتوح قليلا ويداها بين ركبتيها. مكثت ساكنا لا أتحرك لئلا أوقظها أتأمل وجهها البرونزي الصغير. كان على شفتها العليا نقطة عرق صغيرة علامة وحيدة على أنها من لحم ودم. بعد نصف الساعة أفاقت مبتسمة. اتجهت إلى الحمام. عادت. تقدمها عطر الياسمين قبل ظهورها ملفوفة بفوطة كبيرة وقد أمسكت طرفيها عند صدرها. قلت "شبعت نوما وأكلت بقلاوة مع الملائكة". ضحكت "اليوم لم يكن عندهم سوى الفاصوليا". اتجهنا معا إلى المطبخ. أخذت أعد فنجاني قهوة. عندما استدرت نحوها ويدي ممدودة إليها بفنجان القهوة وجدتها قد فردت الفوطة على كرسي بجوار المنضدة الصغيرة. جلست ووضعت ساقا على ساق. نظرت إليها مخفيا دهشتي العميقة. عارية تماما. نحيفة. دقيقة. لا مثيل لجمالها. تناولتْ الفنجان من يدي. أخذتْ ترشف القهوة وتحكي عن قصر أثري عرضة للانهيار بسبب الإهمال في شارع شامبليون. لم أكن أنصت لما تقوله، كنت مأخوذا بأن اندفاق نهديها بدفء عريها لم ينتقص ذرة من شعورها بالكبرياء، لم يربكها. رأسها مرفوع على ساق تتأرجح في الهواء مثل زهرة في ريح. تأملتها بنوع من الأسى لا أدري سببه وأنا أوقن أني سأظل أعشق هذه الشابة الصغيرة في هذا الكون وفي كل كون آخر كيفما كانت عناصره.

***

زارني في المساء طالب يعد رسالة ماجستير. جلس على طرف كرسي بين يديه دفتر يهز رأسه بأدب إلى أن انصرف. اتصل بي رؤوف ابن أخي يطمئن عليَّ. جلست أمام التلفزيون. تمنيت لو تهبط رحاب من عالمها لحظة، أراها، وتصعد ثانية. في نومي بالليل شعرت بومضة لون برتقالية تتوهج في مكان ما بصوت كالألم المكتوم. رفعت رأسي أتتبع مسارها مثل شرخ ملون في الهواء. أخذت الومضة تتهشم إلى فتافيت نور صغيرة تنهال عليَّ بحرارة. دفنت رأسي في الوسادة وأنا أكرر لنفسي بخوف أنه لا وجود للأشباح وما أراه تهيؤات وهلوسة.

لكن الومضة برقت ثانية قرب الفجر، رحت أدير رأسي وراءها في الهواء إلى أن رأيتها تتسع وتتقلص مثل فم بشري. أردت أن أصرخ فلم يخرج صوتي. فززت من السرير أتخبط بين الأبواب والجدران إلى الصالة. ضغطت على زر المصباح بيد مرتجفة. فتحت النافذة العريضة المطلة على الشارع. دفعت برأسي أعب من الهواء البارد. كان الشارع هامدا خاليا من البشر وظلال البيوت مرمية على ضوء القمر مثل حلم. ساعدني الهواء على التماسك. ثمة ظواهر لم يكتشف العلم حقيقتها. لماذا يؤمن الإنسان كما آمنت رحابْ بأن أرواح الغائبين تنصت إليه حين يخاطبها؟ وبأن المدى الذي تبلغه قدرة الروح على البقاء والتحول لانهائي؟ أتكون الومضة روحا؟ روح من؟ روح ماذا؟ أهي رحاب تذكرني؟ تصمم أن تعبر إليَّ؟ تعلم أن صوتها سيصلني؟

أغلقت النافذة. جرفني شوق أن أرى وجه رحاب أن سمع صوتها. دخلت حجرة مكتبي أفتش عن شريط مسجل عليه صوتها. بحثت في الأدراج وبين الكتب. أذكر أنني احتفظت به. ليس شريطا بل شريطان. قصدت حجرة رحاب. فتحت صوانا تكدست في قعره حقائب ملابسها، كتب عن الفن والأدب بالانجليزية والعربية، علب معدنية صغيرة مغلقة على حلي وخواتم. فتشت حتى عثرت على الشريط في علبة منها. نفضت الغبار العالق بحوافه. وضعته داخل جهاز التسجيل. أدرت الجهاز.

- ماذا تفعل؟ أتسجل كلامنا؟

- ولم لا؟ سأحتفظ بصوتك.

- صوتي؟ لم؟. أوكي. سجله. والله أنت أحمق كبير.

- أحمق لأنني أحبك؟ لأنني أود أن أحتفظ بصوتك؟

- أنا أيضا أحبك جدا. لكني أشعر أنك ستتكلم في موضوع آخر بعد دقيقة واحدة.

- أنت فقط تتذاكين.

- سنرى.

- ببساطة أردت أن أقول لك إنني سعيد بنتيجة الفحوص التي أجريتها وبأن الورم حميد. كنت قلقا (صمت) جدا. خفت أن أضيع بدونك. الآن يمكنك من جديد أن تضيقي عينيك بغطرسة واستعلاء، تضعي ساقا على ساق وتشتمي طوب الأرض. وأنا أريد أن أسجل قلة أدبك للذكرى!

- (ضحكة) يا سلام! (صمت) أنا أيضا كنت قلقة. تصورت أن يومي قد اقترب خصوصا بعد وفاة فاطمة صديقتي. شيء مرعب. لكن الحمد لله كل شيء حسب كلام الدكتور تحت السيطرة. (صوت عود ثقاب يشتعل. تنهيدة) سجلت خلاص؟ كفاية؟

- نعم. لكن التسجيل لن يحطم أرقام مبيعات شرائط الكاسيت لأنه خال من شتائمكِ!

- كيف؟ ألم أبدأ بقولي إنك أحمق كبير؟ (قهقه طويلة)

- كنت تنامين فأدخل إلى حجرتك على أطراف أصابعي أهمس في الهواء لا تخافي، نحن معا. ما من أحد يحبك مثلي. لا أحد. تعرفين ذلك؟

- ألم أقل لك إنك ستتكلم في موضوع آخر؟! تروح وتجيء وتنتهي عند غيرتك من كل من هب ودب. (صوت أنفاس متلاحقة) اطمئن تماما. أنت من أحب. أنت من أحببت. أنت من سأحبه حتى أموت. سأرحل وأنت في قلبي. لكني أتمنى أن تنشغل بعملك وتنهي الكتاب الذي بدأته. تترك كل شيء وأنت أستاذ فيزياء لتقول لي فلان كان يمشي بجوارك، فلان تكلم معك؟ فلان نظر إليك؟

- (بتردد) أنا لا أسأل بشأنك. أنا أستفسر عنه هو؟ لماذا رافقك حتى باب الخروج من العمل؟ لم كان يتودد إليكِ؟

- يا ربي! كنت متأكدة أنك ستعيد وتزيد في نفس القصة. أنت رجل مختل فعلا. ألا تلمس شعوري العميق بأننا كائن واحد؟. تحب أن أكرر لك كل يوم أنك تنفخ الحياة في روحي وبدني، وأني أعشق صبرك وقبضة يدك حين تعتصر كتفي، وأحبك حتى حين أتخيلك عندما أتأخر قليلا عن البيت تروح وتجيء في الصالة ثائرا تسأل أين هي الآن؟ وتنعتني في غضبك بكل الألفاظ البذيئة التي تحفظها أنت ولا أعرفها. أحب حتى غيرتك، حماقاتك، أحب عينيك وأذنيك وأنفك وعقلك ومشيتك ضخما مرتفعا عن الأرض قليلا كالطائر. لكن من يصدق أن عالما كبيرا مثلك طفل إلى هذه الدرجة! يا خرابي! كف عن هذا التسجيل. قم بنا دعنا نخرج نتفسح في أي مكان!

ينتهي التسجيل. لكن كان ثمة شريط آخر. ربما أخذته أختها شيرين. أو أنني من حرصي عليه خبأته في مكان لا أذكر أين. سجلته ليلة عيد ميلادها. أذكر أنها كانت تنظر إليَّ بعينين ساكنتين كأنما لا أحد في الدنيا سواي. تستعيد أبياتا من قصيدة:

يا مانعي طيبَ المنام، ومانحي
ثوبَ السقام به، ووجدي المتلف
أخفيتُ حبَكم فأخفاني أسى
حتى، لعَمري، كدتُ عني أختفي!

أيمكن لشدة العشق أن تخفي الإنسان كما يتبخر الماء بالغليان؟ أتستطيع العاطفة القوية أن تذهب إلى حد تغيير الكيان المادي؟

انتهت حفلة عيد الميلاد. انصرف الأصدقاء والأقارب. جلسنا وحدنا طويلا نتذكر أشياء كثيرة صغيرة نضحك منها، ثم أخذتنا الحماسة للمستقبل فقسمنا شهور العام المقبل في دفتر ووضعنا برنامجا لما سنفعله كل شهر. جلسنا حتى قالت مع ضوء الفجر إنها تعبت وتريد أن تنام. قلت لها انتظري دقيقة. اتجهت إلى المطبخ. رجعت بكأس من عصير البرتقال. رأيتها من ظهرها جالسة رأسها محني على

سهوم كأنها نجم مكسور لا يستطيع أن يصعد إلى سمائه. وضعت يدي على كتفها برفق. همست "حتى عندما تمسين عجوزا تتحركين ببطء تسمعين نصف ما يقال سأظل أحبك". وقفت كأنما أفاقت. دفعت وجهها وشفتيها إليَّ. رحت أقبلها وأمسد ظهرها بكفي. جرت دموعها على شفتي وهي تشهق ساخنة في حضني.

***

في الصباح اتجهت إلى الكلية بدون نوم تقريبا. في الطريق قلت لنفسي إما إن محبتي قد ضربت عقلي أو أن ومضة الفجر أمر فوق إدراكي. تعمدت أن أفتح مع زملائي في حجرة الأساتذة شتى المواضيع. يتكلمون وأنا أراجع مع نفسي على ضوء ما يقولونه صواب معارفي. تطابقت التواريخ والوقائع. لم أخطئ في شيء حتى ما يخص القضايا العلمية الدقيقة. إذا لمعت الومضة مرة أخرى فلا بد من التحقق منها. لست أخشى العالم المجهول ولا أعتقد أن ثمة ظاهرة خارج نطاق العلم.

حل المساء وأنا أتوجس الومض البرتقالي. كنت ممتلئا بالمرارة من عجزي عن فهم ما يجري. قالت لي رحاب يوما وأنا أسقيها الدواء "ما يختفي لا يفنى. سنبقى معا دائما. لا يداخلك شك في الفردوس". أتكون الومضة دعوة إلى عالم آخر؟. شربت قدحي قهوة ثقيلين. أجبرت نفسي أن أظل مستيقظا حتى انغلقت عيناي من الإنهاك ثم شعرت بالومض البرتقالي على جفني. اعتدلت جالسا. حل عليَّ الذهول حين رأيت أمامي طيفا مجسما بلون برتقالي، بدون وجه. ترتعش أطرافه متوهجة. يسطع ويختفي منه خيطان مضيئان كذراعين. طاشت نظراتي. تيبست عضلاتي. تجمدت محدقا به. قطع الطيف الصمت بصوت مرتجف كرنين وتر "توقعت أنك ستفزع عند رؤيتي. الناس لا يتعرفون على السحابة عندما تغدو مطرا، على الشجرة عندما تصبح حريقا". تلفت شعاعه كأنما يتطلع حوله "لم أعد أذكر. أكانت هذه حجرة نومي أم مكتبي؟. كان ذلك من زمن بعيد". جف حلقي. لم أكن قادرا على الكلام، لا أدري إلى أين أوجه بصري. قال "سكنت هذه الشقة قبلك. هنا انقضت أجمل سنوات المحبة إلى أن رحلت المرأة التي كانت حياتها حياتي وزوالها زوالي". تمتمت متسائلا "ما أنت؟ ما أنت؟". استطال ضوءه كأنما يشد كتفيه لأعلى "طيف إنسان. كيف أشرح لك؟ هذا يحدث لكن أحدا لا يصدق. تشف المعادن في النار والبشر في العشق. إذا طال العشق وزادت أشواقه يشف الإنسان حتى يغدو طيفا. الكون عامر بأطياف أرواح عاشقة" بدا عليَّ الذهول فمضى قائلا "ألا تشعر أحيانا أن كائنا يرف حولك ويختفي؟ ألم تشعر بهذا ولو مرة وأنت جالس مع أصدقاء أو وحدك؟. العشق هو الذي قادني إلى هذا المكان حيث كنت أحيا معها. الآن أسير في الأجواء كسهم من نور وفي شعاعي ذرات ذكريات من حياتي معها،

وفجأة أرى عينيها أمامي، تقولان لي أنا موجودة، فقط اعثر عليَّ. وتنظران إليَّ بأمل، فأهوي من السماء بحثا عن شيء منها. أتفهم هذا؟". هززت رأسي أن نعم. داخلني شيء من الطمأنينة. شعرت أن الطيف ليس غريبا عني. لم أعد أخشاه تقريبا. أخذت أفكر فيما قاله. أيمكن للروح أن تطوف وحدها؟ منذ متى فكر الناس في ذلك "وإني لمن قوم كأن نفوسهم بها أنف أن تسكن اللحم والعظما"؟!

انكسر نوره وهو يميل ناحيتي "أريد أن أتجول في الشقة، أتنشق عطرها". انفعل وعلا صوته فزاد توهجه صفاء "أتعلم كم من العناصر لابد أن تفور في نفس اللحظة وتجري من أرجاء الكون لتلمع بها نظرة عشق واحدة؟ إننا قد ننسى أي شيء إلا نظرة حب". جلس على حافة السرير فظهر الغطاء مرئيا بداخله وغمغم "من صعقه برق الحب يحيا كالنور"!

سار على خيطين من ضوء كالساقين إلى باب الحجرة. نهضت. تبعته بهدوء. كان يفتح أبواب الحجرات ينظر فيها إلى أن توقف في الصالة طويلا أمام صورة رحاب "أهذه هي؟". قلت "نعم". قال "أكنت تعشقها حتى النهاية؟". قلت "كنت أشعر أنها مثل شجرة فتية واحدة في هذا العالم، وأنا جالس تحتها مستند بقلبي إلى جذعها، أحدق بعينيها الشاردتين فأراني وأعرف لماذا خلقت". ارتجف بشدة كأن الريح تعصف بضوئه. قال "أعلم. أعلم". اتجه ناحية باب الشقة وهو يقول "دعنا نخرج إلى المدينة". عبر من الباب من دون أن يفتحه. وضعت قدمي في فردة شبشب على عجل وخرجت وراءه بالبيجاما. تقدمني بين البيوت كقنديل منير. كانت الشوارع ساكنة مهجورة. بلغنا الميدان. رأيت المحلات مضاءة مفتوحة لكن لا أحد. الكراسي أمام المقاهي مصفوفة لكن شاغرة. السيارات ثابتة لا تتحرك. شاهدت شجرة تحتها راكية نار دخانها معلق لا يتبدد. جلس على حجر فبدا كأن على الحجر ثوبا شفافا من النور. قعدت بالقرب منه. غمغم بانفعال "من كثرة ما طلبها دمي جُن قلبي". قلت "أعلم كل هذا ". تطلعت إليه. وجدته يتقلص نقطة نور مبتلة كالدمعة المضيئة. بدا لي أنه يبكي متألما. قلت "لابد أن هناك وسيلة تجتاز بها الروح المسافات المجهولة إلى الروح". لكنه لم يكن ينصت إليَّ. كان يرتجف بشدة كأنما يستنفد نفسه وطاقته في خط من حريق اندلع ثم خمد فجأة أمام عيني. وعلى الفور امتلأ الميدان بالمارة والعابرين وثارت فيه حركة وضجيج، كأنما يتهدم العالم من حولي. دار رأسي بقوة. تداخلت المرائي أمام ناظري. تلاحقت كالبرق صور وأصوات. وجه يغيم . هفيف ريح. امرأة تحت المطر. يا مانعي؟. قبل أن أغيب عن وعيي درت ببصري دورة أخيرة كأنما لأتأكد أن العالم باق كما هو. كانت شرفات البيوت في مكانها، وواجهات المحلات. لكني لم أر رحاب . خلا المشهد منها. لم يهف عطر أنفاسها من رئتيها الصغيرتين .

◘ ◘ ◘

أحبُ " ساراماجو "

كنا – أنا وحلمي - نشرف على الصفحة الثقافية بجريدة "الوحدة". نجلس إلى مكتبين متواجهين في حجرة واسعة تطل نافذتها على شارع عريض. نقوم بكل ما تحتاجه الصفحة ماعدا تغطية المؤتمرات خارج العاصمة. معنا، لكن على كرسي قرب باب الحجرة "رمضان" ببدنه الضخم، ورأسه الحليق على الزيرو، يتصفح مجلات متثائبا إلى أن يطلب منه أحدنا شيئا.

بدأت القصة بال تكليف الذي تلقيناه حينذاك بتغطية مؤتمر في إحدى المحافظات البعيدة. كالعادة اتصلتُ بشاب من قسم الأخبار كنا نعتمد عليه في تلك السفريات. قيل لي إنه في إجازة لظرف طارئ. علق حلمي "ضاعت عليه المئة جنيه بدل السفر ووضعنا في ورطة". تطلعت إليه أستكشف إن كان قد يقبل هو بالسفر. عاجلني بقوله "لا يا عم! لا. هذا مشوار يحتاج عافية". كنت أعلم أنه يكره فنادق الأقاليم فلزمت الصمت.

رمضان الذي اعتدنا تدخله في كل شيء، واعتاد هو صمتنا لأن ملاحظاته كانت في معظمها دقيقة، مط شفته السفلى . هز رأسه باستهانة "وماذا يكون المؤتمر يعني؟ ناس يتكلمون. نرسل أي شخص والسلام. مشكلة يعني؟". وقهقه بصوت مدو كأنما يقف في حقل مفتوح. سكت. استند بباطن قبضته إلى حافة مكتبي وأعلن ما بين الجد والهزل كأنما يجود علينا بهدية " ه اتوا المئة جنيه بدل السفر وأذهب أنا". الفكرة بدت غريبة . لم أستوعبها، مثل قطعة خشب يدفعونها لفم إنسان على أنها طعام فتعطل حواسه لحظة. لمح رمضان الحيرة على وجهي فتراجع للخلف وأولاني ظهره خارجا من الحجرة قائلا "مؤتمر؟ يعني نخاف يعني؟". عاد بعد دقائق يحمل فنجاني قهوة. وضعهما أمامنا بصمت لكي لا يشوش علينا استيعاب اقتراحه المفاجئ.

رمضان الذي يناهز الثلاثين ساع، لكنه يقوم بأي شيء . ذكي بالفطرة وطموح . حاصل على دبلوم متوسط . ما لا يستطيعه يظل وراءه بإصرار حتى يتقنه. خلال عام واحد من عمله معنا أصبح قارئا للصحف يرمي بملاحظات دقيقة على ما ينشر. يسخر من تبدل مواقف الكتاب، بل وصار خبيرا في الكمبيوتر، يفتح الملفات ويطارد الفيروسات. لكن أيعني كل ذلك أن نرسله باسم الجريدة إلى مؤتمر؟.

تبادلنا أنا وحلمي نظرة. وبدا أن حلمي حسم أمره فقال ل رمضان "طيب.. عندك بدلة أنيقة؟". على الفور اندفع رمضان يوسع الثغرة التي ارتفتحت أمامه مؤكدا "عندي. وقميص وكرافت أيضا. ثم أنا سأحمل مسجلا صغيرا، أسجل عليه كل ما يدور، وممكن كاميرا. وإذا سألني أحد أقول من الجريدة وخلاص. مشكلة يعني؟". ولمعت عيناه بأمل يشجعنا على قبول الفكرة . تظاهرت بأني متردد، بل

كنت مترددا فعلا. قلت له "لكن إياك تفضحنا!". صاح بلهجته الممطوطة "كيف؟ وكل ما سأقوم به الضغط على زر التسجيل؟. ماعدا ذلك أنتم تعرفون رمضان يسلك مع الجن الأزرق". استراح حلمي . قال له "وإذا سألوك عن أي شيء أنت صحفي. أديب". هبط رمضان برقبته بين كتفيه. وسع عينيه باستنكار "صحفي ماشي. لكن أديب؟ كيف يعني؟ !". هونت عليه "أنت تعرف أسماء طه حسين والحكيم . ما المشكلة؟". شعشعت العملية في عقل حلمي . قال "ما عدا ذلك قل أنا أحب ساراماجو"! مط رمضان بوزه باشمئزاز "صاراما طو؟! كيف يعني؟". ضحك حلمي "ليس صاراماطو، بل ساراماجو، أديب برتغالي". زام رمضان مدركا أن الكلمة لا تمس كرامته. قال رافعا حاجبيه "واجب أتذكر الاسم.. احتياطا".

قبض رمضان المئة جنيه وسافر. عاد إلينا بعد يومين. الحق كدنا لا نعرفه وهو داخل علينا بالبدلة، رأسه مرفوع ، صدره مفتوح، و تحت إبطه رزمة كتب. وضع أمامنا جهاز التسجيل، وصاح بشمخة "كل كلمة نطقوا بها. معي أيضا صور للمتحدثين في المؤتمر. بالمناسبة بعضهم أصر على التقاط صورة معي للذكرى".

خطف رمضان بحالته الجديدة اهتمامنا. سألناه عن التفاصيل بتشوق فحكى كل شيء. قال إنهم استقبلوه بترحاب (أراد أن يقول بتقدير)، وإنه تحين الفرص خلال الأحاديث لتمرير عبارة "بالمناسبة أنا أحب ساراماجو. إنه أديب عظيم". قهقه بطريقته الصاخبة مضيفا "مرة واحد منهم سألني ومن يكون ساراماجو؟. فلجبته بدهشة - خير ياعم؟! ألم تقرأه؟!". انتبه حلمي إلى رزمة الكتب . سأله "ما هذا؟ أبحاث المؤتمر؟". سحبتُ كتابا من الرزمة وقرأتُ بصوت مرتفع إهداء على الصفحة الأولى "إلى الأديب الكبير رمضان السيد. خالص التقدير لإبداعه". نظرتُ إليه، ورأيتُ للمرة الأولى سحابة خجل تمرق في وجهه، لكنه ما لبث أن ثار بغضب "أهداني إياها بعض الأدباء ما إن علموا أني صحفي في جريدة. ماذا أفعل؟ كان لابد من سبك الدور". غادر الحجرة بعصبية. في صباح اليوم التالي رأيناه من جديد بالقميص والبنطلون القديمين. تفادينا التطرق لموضوع المؤتمر. بعد أسبوع أخذت مظاريف مغلقة تصل باسم رمضان. كان يفتحها أمامنا ببطء ويخرج منها كتبا ويتجه إلى مقعده ببهجة مكتومة يتصفحها. أحيانا يقول بحيث نسمعه "والله هذا الشاب موهوب. أسلوبه حلو". بالتدريج صار رمضان يستفسر منا عن كتب بعينها ويستعيرها لقراءتها.

بحلول صيف ذلك العام تركنا رمضان. التحق بإحدى الجرائد صحفيا تحت التدريب، ولم نره زمنا طويلا، إلى أن سمعت في إحدى الجلسات أنه صار مسئولا عن ملحق أدبي في صحيفة رائجة. بالأمس كنت بالقرب من مقر تلك الصحيفة . ساقني الفضول لزيارته. استقبلني في مكتبه بترحاب وتهليل. كان عنده شاب جالس بأدب على طرف كرسي بيده ورقة. نصحه رمضان أمامي قبل أن يصرفه " اقرأ ساراماجو" ، ثم استدار رمضان نحوي وهو يضيف بنظرة مركزة وببطء كأنما

يبثني رسالة خاصة "وماركيز". انصرف الشاب متراجعا بظهره . صرنا وحدنا . فانطلق رمضان يحدثني عن مشاريعه الأدبية.

◘ ◘ ◘

نـــدم

خرج من جناح الكتب العلمية إلي الشارع الممتد بين معارض الكتب . أحس بساقيه ترتعشان من إرهاق جولته الطويلة داخل المعرض فتوقف وبيده ربطة الكتب التي اشتراها . كان الجو مشبعا بمطر وشيك ، والهواء البارد يضرب فروع الأشجار الداكنة ويشتت أضواء أعمدة النور في العتمة الخفيفة في رذاذ متوهج .

لبث بمكانه لحظة مرهقا . وفجأة تمكن منه الاستياء حين تصور ما سيجده عند عودته للبيت : قمصان مرمية على مساند الكراسي . أعقاب سجائر في أكواب تحت حافة السرير . أطباق بوساختها في الحوض . وحين يقدم الطعام لإبنه الصغير سيمط الولد شفته ويقول برفعة : " بس ماما ما بتعملش كده " !

على الرصيف المقابل لمح فتاة واقفة تحت شجرة وارفة ، و جزء صغير من ضوء القمر على كتفها . زر عينيه ليراها بدقة . متوسطة الطول ، نحيفة ، لفت رأسها ووجهها الشاحب بإيشارب . لمحته هي الأخرى بنظرة جانبية سريعة . في الشارع ما بينهما مر رجل عجوز ، فهبطت من الرصيف إليه ، أحنت كتفيها بأدب ناحيته ، ومدت يدها إليه بحافظة وحاولت بغمغمة إقناعه بشراء ما لديها . لكن الرجل لوح بيده دون أن ينظر ناحيتها مواصلا طريقه . عادت لمكانها تحت الشجرة وأطراف جونلتها تهتز بخفة . عبر الرصيفين تبادلا نظرة انطوت على خجلها منه كشاهد على إحباطها وعلى مواساة هينة من ناحيته . في هبوطها وصعودها ، كان يهف حولها هواء خاص، نظيف ، مثل أول عطر تطلقه الزهرة .

عبر الشارع إلي الرصيف الآخر حيث تقف . تأملته بحذر وهو يدنو منها. الآن يرى وجهها . ربما تكون في الثامنة عشرة لا أكثر . تدرس؟ أم كانت تدرس ثم قطعت تعليمها ؟ والدها حي ؟ أيعلم أنها تقف هنا حتى هذه الساعة المتأخرة في البرد ؟ . تنشق من حولها رائحة أوراق الشجر المبتلة ولاحظ أن ملابسها رخيصة لكنها نظيفة ومكوية بعناية . أصبح أمامها ، فهبطت وخطت نصف خطوة ، ومدت يدها إليه بحافظة بلاستيك تحتوي على خمسة أقلام . قالت بصوت مرتجف : هذه الأقلام تباع عادة بعشرة جنيهات ، لكن شركتنا بمناسبة معرض الكتاب تقدم لك تخفيضا وتبيعها بخمسة جنيهات فقط ، فإذا اشتريتها حصلت معها على ممحاة مجانا .

تناول منها الحافظة ، وتظاهر أنه يفحصها باهتمام . تأملته الفتاة وهي تحصي في بعقلها عدد الأقلام التي باعتها . قالت لنفسها : " لو أنه سيشتري هذه أكون قد بعت عشرة ، فأنصرف لأتعشى مع أمي وأخوتي ".

راح يقلب الأقلام بين يديه ، ثم قرب واحدا منها إلي عينيه وهو منساق داخليا لدفء يبثه في أعصابه قوام الفتاة المشدود ، وخيالات الاعتصار التي تضوي بها البرتقالة الصلبة .

نظر إليها . صغيرة، مهذبة ، ومشتتة في البرد. ضمت شفتيها بأدب وظلت صامتة تنتظر إجابته. أراد أن يسألها عن أشياء كثيرة ، كيف تعيش ؟ وأين ؟ كم عمرها ؟

هل تعلق قلبها بأحد أم أنها مازالت لا تعرف الحب ؟ ما الذي تود أن تفعله بحياتها ؟
لكنه استفسر منها بصوت مضطرب عن شيء آخر تماما :
- قولي لي صراحة كم تكسبين من عملك هذا طيلة اليوم ؟
وحتى في العتمة الخفيفة كان من الممكن ملاحظة أن وجهها الشاحب قد تورد قليلا وهي تتمتم مرتبكة :
- حسب الظروف .
- لكن هذا عمل مرهق ؟
تطلعت حولها بقلق يمينا ويسارا :
- نعم .
وأضافت على الفور بصوت نحيف مرتجف كأنها تبتهل :
- الأقلام جيدة . لن تندم . يمكن أن تجرب واحدا منها .
سنواته الأربعون ، وخبراته ، وخيالات الاعتصار ، ووجود الفتاة وحدها ، وشعوره بقوته ، وأمله أن يملأ روحه بهواء الزمن الشاب ، كل ذلك أطلق العنان للجرأة . قد يصطحبها إلي البيت ويدفع ابنه الصغير للنوم باكرا ، يمكن أن .. كبح جماح نفسه قائلا :
- ألا تودين أن تستريحي قليلا في كافيتريا المعرض؟ نشرب قهوة معا ؟
أدارت وجهها بشفاه مرتعشة مثل أرنب في مصيدة .
- شكرا . الوقت متأخر . لكن بالنسبة للأقلام ..
قرر أن يقدم على خطوة حاسمة :
- يمكنك أن تأتي معي لمساعدتي في ترتيب الكتب لساعتين أوثلاث لا أكثر وتحصلين على مئة جنيه مرة واحدة ؟ أليس هذا أفضل ؟ عمل مجز ولن تتعبي ..
أدركت ما الذي يقصده . ارتعشت ذقنها . تراخت يدها الممتدة بحافظة بالأقلام ولمعت عيناها وهي تطرف بخجل وتمتمت :
- شكرا . شكرا . آسفة ، لكن لا أستطيع .
وتراجعت ووجهها له عائدة إلي موقعها على الرصيف . لحظة ثم دفعت نحوه الأقلام بيأس :
- لكن .. إذا أردت .. إذا أعجبتك الأقلام . أنا نفسي جربتها ، أقلام جيدة .
انطفأت رغبته كما تنطفأ شمعة من هبة هواء . هي صغيرة حقا لكنها ليست ضعيفة كما تبدو. أحس بالخجل . ابتسم ابتسامة متوترة محبطة ، وأمعن النظر إليها قائلا :
- أنا آسف . طبعا . أردت فقط أن .. قلت ربما تكونين بحاجة لمبلغ ذي قيمة . لكن مفهوم .. طبعا .. طبعا .
تناول الأقلام وحشرها في جيب الجاكتة ، ثم أخرج عشرة جنيهات وأعطاها إياها .
كان أنفها محمرا وعيناها محتقنتين وهي تبحث في كيس أسود صغير عن بقية المبلغ لترده إليه .
لوح بكفه : لاداعي .
ترددت ثم قالت بامتنان :
- متشكرة قوي .

طفا بداخله شعور دافيء ناعم بحزن خفيف وبالشفقة عليها وعلى نفسه، ولم يجد شيئا ليقوله . الأفضل أن ينصرف ، لكن قدميه ثقيلتان كالرمل ، مرتبكتان . تحرك بالكاد وهو يهز رأسه لها عدة مرات ، ما الذي أراد أن يقوله لها بهذه الهزات المتتابعة ؟ . أولاها ظهره ومشي ببطء نحو بوابة الخروج من المعرض . سار بتراخ و حين شعر أن نظرتها مسددة إلي ظهره شملته رجفة من تم ضبطه بجرم فخارت قواه . أراد أن يعادل شعوره بفداحة الخيبة ، بشعور آخر بأنه ليس سيئا كما بدا ، فعاتب نفسه على قسوته مع إبنه الصغير، وعلى مغامراته العاطفية التي أفسدت علاقته بزوجته ، وحتى على أنه يطفيء السجائر في أكواب الشاي ، وتمنى لو تغيرت حياته كلها .

تابعته الفتاة ببصرها وهو يسير مبتعدا بظله الطويل خلفه . ماذا لو كانت قد ذهبت معه لساعتين أو ثلاث؟ عيب ؟ ألم تكن هذه الإهانة السريعة لتحفظ لها كرامتها مدة طويلة ؟ وتجعلها تتخلص ولو مرة من الحرج حين تدفع زميلاتها حساب المشروبات في مقهى الكلية بينما تتشبث هي في كل مرة بأقصى قدر من برودة الأعصاب حتى توشك على البكاء ؟ . بمئة جنية كان يمكنها أن تشتري البلوزة الوردية وغيرها . من كان سيدري لو أنها رافقته إلي منزله ؟ كان بوسعها أن تغمض عينيها في تلك اللحظات وتفكر في أي شيء آخر حتى يتم الأمر وينتهي بسرعة ؟ لماذا فوتت هذه الفرصة ؟ .

اقترب من بوابة الخروج الحديدية . شيء ما ، قبل أن يجتاز البوابة ، جعله يتوقف وينعطف برقبته ناحيتها . كانت مازالت واقفة في الجو الغائم ويدها مرتخية بالحافظة .

أرسل إليها نظرة مركزة مشبعة بالندم والاعتذار . كان بصرها هي الأخرى مثبتا عليه . تساءل ما الذي تعنيه هذه النظرة ؟ وهذه الابتسامة الخفيفة المتشنجة ؟

◘ ◘ ◘

غيمة

توفيت أمي فجأة قرب الفجر ، وهي جالسة بكامل قواها العقلية والنفسية . لم تنطق إلا بكلمتين : جرعة ماء . اجتهد الموت معها وقدم أسبابه ثلاث مرات ، ردته، فهبط عليها كما هو – مجرد موت – عار من أي منطق ، دون سبب ظاهر يتعزى به العقل . ولم يبق أمامنا على سريرها سوى القشرة الخارجية للروح التي كانت أمنا لسنوات طويلة .

طبعتُ قبلة على جبينها وهي ممدة أمامي وانصرفتْ دموعي لمشقة حياتها أكثر من أي شيء آخر .

سألتُ نفسي : ما الذي يمكن لها أن تقدمه للموت بطاقة أخيرة وهي تعبر إلى الأبدية ؟ لابد أن هناك معنى يتصل بالعلاقة بين انتهاء الحياة وابتداء الموت ، جسرا صغيرا ، إذا لم يجده المرء يصبح الموت نهاية الطريق . ترى هل وعت شيئا تتكئ عليه وهي تسير إلى العالم الآخر؟

أنهينا كل الإجراءات اللازمة بسرعة كالمعتاد في هذه الحالات . جرى عمي واستخرج تصريح الدفن وقبل أن يعود لاهثا، كان آخرون قد استقلوا سيارة واتجهوا إلى مقابر العائلة لإعداد المثوى، بينما قصدت أنا مع اثنين من أقاربنا محل الحانوتي . وأصبح الموت موضوعا للفصال مع الحانوتي البدين الذي طالب بخمسمائة جنيه عن التغسيل وقماش الكفن والنعش وسيارة النقل . وبعد نحو خمس ساعات تحركت عدة سيارات إلى مدافن العائلة وهي تجهد لكي لا تفقد مسارها في الزحام .

* * *

توقفت أختي الكبيرة عن التردد على البيت مع أطفالها بعد وفاة أمي . قالت : لا أستطيع أن أدخل فلا أجدها . وأخذ أخي الأصغر يكرر على مدى شهرين أنه مازال يرى أمنا من حين لآخر وهي تقطع الصالة بهدوء ، بل ويجدها تتحدث إليه حين يكون واقفا بمفرده في المطبخ أو الحمام . وبعد فترة قصد أخي طبيبا نفسيا يسأله منوما أو مهدئا . قال له الطبيب إنه يعاني من هلوسة سمعية وبصرية عادة ما تظهر بعد وفاة حبيب أو عزيز . أشفقنا جميعاً على أخى لأنه يعيش في نفس الشقة تحيطه أنفاس أمي وأشياؤها . وكنا نستشعر صعوبة وضعه إذا تجمعنا في البيت لسبب أو آخر ، لأننا كنا نحس أن طيف أمي يجوس صامتا سجينا في الهواء .

وخوفاً على صحة أخي ارتأت ثريا زوجته أن تغيرَ أثاث البيت قطعة بعد الأخرى ، حسبت أن ذلك سيبدل الجو القاتم. هكذا فوجئنا ذات يوم أنها اشترت طقم صالون جديد . وحين شاهدناه في مدخل الشقة ابتسمتْ بحرج خفيف وهمهمت كالمعتذرة وهي تفرك فوطة بيدها: نوع من التغيير. قالتها كأنها تطلب المغفرة . تأملنا الطقم وأبدينا إعجابنا به . لكني شعرت أن شيئا من روح أمي التي اعتدتُ على رؤيتها على كرسي بعينه قد ولى . ثم بدلت موقد الغاز القديم بآخر اشترته بالتقسيط ،

فتلاشت صورة أمي وهي واقفة في المطبخ تغلي الماء للشاي في إبريق صاج تقشر طلاؤه . وعندما اختفت المنضدة القصيرة التي كانت أمي تجلس خلفها لتفطر كل صباح أدركنا جميعا دون أن ينطق أحدنا بحرف أن ما تبقى من السيدة التي أطعمتنا وسقتنا ينزلق من بين أيادينا إلى العدم . في النهاية قررت ثريا أن تطلي جدران البيت بزيت أخضر لامع . وحلت مكان روح أمي التي كانت تجوس بين أشيائها في الشقة صورة كبيرة لها في إطار مذهب توحي ليس بالرغبة في استبقاء وجه أمي طيلة الوقت على مرأى من الجميع بقدر ما تشى بأن المساحة الممنوحة لهذه الروح قد تقلصت بحجم إطار الصورة ، وأن علي أمي من الآن فصاعدا أن تقنع بوجودها الذي تقلص وثبت بمسمار في الجدار دقته ثريا بارتباك على عجل .

* * *

ربما منذ أن شرع العمال في طلاء الشقة ، أو قبل ذلك بقليل ، صرت أرفع رأسي للسماء دون سبب ظاهر أثناء سيري في الشوارع . كان ذلك يحدث أحيانا ، وأنا أمشي بمفردي ، فإذا كان ثمة من يسير معي واستغرب ما أفعله ، سارعت أداري نفسي بنظرة خاطفة إلى ما بين قدمي أو إلى واجهة أقرب محل ، دون أن يبدد ذلك الحيرة الصامتة في عيني الآخر عن بسبب نظرتي المفاجئة نحو السماء .
كنت أرفع عيني إلى أعلى بحثا عن شيء مجهول لم أره من قبل. ربما كان سحابة كبيرة بيضاء ، أو فراغا لا أدري شكله ، أو روحا كالغيمة منداة بالدمع .

* * *

ساعة دفن أمي كنت مسروقا من نفسي ، فلم يعلق بذاكرتي سوى ذوب صور مما جرى ونحن نعبر البوابة الحديدية العالية إلى مدخل المدفن بين صراخ أطفال وشحاذين ومقرئين نحو الفسحة الداخلية المدورة المبلطة ، وعيناي كأنما في حلم يراه شخص آخر تمسحان بنظرة غائمة أسماء الراحلين المنقوشة على الشواهد الرخامية العالية في الجدران. غالبية الأسماء معروفة لي . من بينهم تهاني بنت عمي الأكبر . كانت لهم فيلا من طابقين بحديقة واسعة مزروعة بأشجار المانجو والجوافة والليمون في أرض النعام، خيم عليها حينذاك هدوء، وصحا فيها هواء نقي ، وتناثرت المساكن القليلة فيها على مسافات بعيدة . كنت متيماً بتهاني وأنا في الثالثة عشرة ، مغرما حتى باسم التدليل الذي ناديناها به "توتة " .
كانت أكبر مني بعشر سنوات ، لكن نظرة عينيها الواسعتين الصافيتين كانت حين أتطلع إليها ترتجف كسماء يشقها ضوء نجمة. وصار من عاداتي أن أستعد لزيارتها عصر كل خميس فأشتري خصيصا لأجلها عددا جديدا من مجلة " مئة نكتة " ، وأعكف عليه طيلة الليل أحفظ منه قدر ما أستطيع ، ثم أنام مؤرقا .
أستيقظ يوم الجمعة مع أول خيط من النور ، وأظل فترة أنتقي الأفضل من بين ثيابي القليلة . ثم أتجه إلى الشارع الموازي لشارعنا ، أركب الباص من الموقف ،

وأرتكز برقبتي على حافة نافذة مقعدي ، وأسرح في الشوارع الخالية التي يقطعها الباص زمنا طويلا ، وتوتة في خيالي ومناظر الطريق تتبدل.

أصل إلى بيتهم ، وأتجول مع " توتة " في الحديقة براحتي ، لأنني صبي ، أحكي لها أي شيء فتعلق على كل ما يقال بضحكة : معقول ؟ لا . لا ! وتغرق في الضحك وهي تهتز مرتجفة مع هواء الحديقة الواهن المشبع بعطر الليمون . أسرد عليها النكات واحدة في إثر الأخرى بلا توقف ، فتضحك وتضحك حتى تفيض عيناها بدمع الحنان وتطبع على خدي قبلة خاطفة وحمرة تصعد إلى وجنتيها .

أتجمد في مكاني كالمذهول ! تردني إلى وعيي بسؤال – كأنه استفسار عابر - عن أحوال خالي الذي أوشك على إنهاء تعليمه . لم أعرف أبدا إلى أن خطفها الموت إن كانت تداري بالقبلة حبها لخالي؟ أم كانت تداري باستفسارها عنه حبها لي؟ كنت أصغر من أن أسأل ، وكانت أكبر من أن تبوح .

في المدفن كان شعوري باهرا بضوء الصبا القديم الذي انبعث من الموت ، كأنني لم أكن واقفا أودع أمي التي نمونا على ذراعيها كحبات عنب على فروع التعكيبة . كأنني جئت لألتقي توته . كنتُ أشعر بوتر رنان يهزني من محبة لم أتوقع ظهورها بهذه القوة وغمرني تأنيب عذب ومؤلم للفرح الخفي الذي أحسسته من لقائي بتوته بعد كل تلك السنوات .

سألتُ نفسي : إن كانت الطاقة لا تفنى ، فإلى أين تنصرف مشاعر الدفء والحب التي يهبها البشر بعضهم البعض ؟ هل تتجمع في مكان ما وفقا لقانون خاص وهناك تواصل حياتها في شكل آخر؟ لكن .. أين ؟

لم أهبط مع أمي إلى قاع القبر . ولم أحملها إلى هناك . لم أفعل ذلك مع أبي أيضا حينما ألقوا به يوما إلى هوة سحيقة. لم أستطع . فالموت مثل حكم بالإعدام ، أما الدفن فيشبه لحظة التنفيذ حين ترى العينين والوجنتين وهي تُدفع دفعا إلى التراب .

* * *

هكذا صرت بعد دفن أمي أجدني وأنا أسير بمفردي أرفع رأسي أحيانا إلى أعلى ، على غير إرادة مني ، متطلعا إلى شيء مجهول في السماء ، غيمة من الأرواح تسأل برفق عن أحبائها .

◘ ◘ ◘

الحب والفولاذ

ذهبتُ مبكرا قليلا عن موعدي. قصدت نصبة شاي أم السعد، واسترحت في ظل تكعيبة العنب الذي يغطي بقعة صغيرة. جلست على حجر أشرب الشاي وأرقب بطرف عيني موقف السيارات القادمة من غزة. المفروض أن تكون ريم هنا بعد نصف الساعة على الأكثر.

الجو حار لم يكسره هواء بحر رفح الذي يسري من بعيد. في نقطة عالية من السماء حومت طائرة. ومض فولاذها لحظة في شعاع شمس ثم انحرفت مرتفعة واختفت في طبقات أعلى. ترامت أمامى البيوت التي برزت أسياخها وأخشابها في الهواء. خيام قعد أصحابها أبصارهم محنية على الأرض. عيال عراة يتواثبون حول موتوسيكلات محطمة ومعوجة. أشجار زيتون متباعدة محترقة. لا شيء ينجو من الطائرات المغيرة.

ها هو ميكروباص عتيق يلوح مقرقعا، اقترب وتشبثت عجلاته بالأرض متوقفا. هبط رجل عجوز ببطء معتمدا على ذراع شاب يحمل بيده الأخرى أشعات طبية . تسرسبت بعده بضع نساء تضم أذرعهن إل ى صدورهن زجاجات زيت ومعلبات أطعمة. أخيرا تقدمت ريم برأسها من فتحة الباب وظهرها محني . هبطت وفردت طولها وبان قوام ابنة السابعة عشرة ملفوفا مشدودا في فستان أبيض تناثرت فيه زهور برتقالية. تلفتت حولها بنظرات متوترة بين الطفولة والصبا . برق في عينيها اللامعتين قلق. اقتربت منها، وكدت أنسى وأرفعها من خصرها بيدي الاثنتين لأعلى وأقبلها كعادتي فيما مضى لولا حمرة الخجل التي كست وجهها بطيف اعتذار نبهني إل ى أنها صارت آنسة. قالت وهي تصافحني "عم غسان! كيفك؟". قلت "كيفك أنتِ؟". قالت "تمام. تمام". رفعت حاجبي وأشرت بعيني إلى الطريق. سرت أمامها. مشت تقريبا بمحاذاتي. أدبُ على الأرض بجوارها لكن لا أسمع لها صوتا إلا حين تضرب بيدها طرف فستانها إذا رفعه الهواء. أمشي بين الخيام وريم تنداح في روحي مثل نغمة أعراس القرى "سبل عيونه ومد إيده يحنوا له، غزال صغير كيف أهله سمحوا له؟". النغمة مفرحة في الأصل لكنها ترددت داخلي مبطئة شجية.

دنونا من البيت المقصود وتطلعت وراء كتفها فلم أر أحدا. طرقت الباب طرقتين. فتح ياسر، دخلتُ ومرقت هي في أعقابي. أغلق ياسر الباب خلفنا . وقفنا ثلاثتنا في فسحة البيت، ولم يكن بها شيء سوى حصيرة مفروشة وراكية شاي وصحون صاج.

قال ياسر "أهلين". وتردد بصره بينى وبين ريم وهو يشير إل ى أكواب وملاعق قرب الحصيرة كأنما يدعونا لشيء . هز رأسه بحسم قائلا "أنا لابد أن أنصرف. عندي شغل". حدق في وهو يدور سبابته حول أذنه "خليك معهم على

المحمول". أعطانا ظهره وقبل أن يخرج أدار رقبته نحونا "ستجدونه معكم بعد نصف ساعة أوساعة على الأكثر. يعطيكم العافية".

خرج. شعرت بها من دون أن أنظر إليها ترتجف. كنت أعرف والدها جيدا، وأتردد عليهم في حي الجنينة إلى أن توفى، فأحجمت عن زيارتهم لأن أمها صارت وحدها بدون رجل، ومرت سنوات وإذا بريم تستدل على عنواني وتجيء إليَّ، وفاجأتني بأن الطفلة التي كانت تثب إل ى عنقي تقبلني كبرت هكذا. حينذاك طلبت مني بكلمات مقطومة المساعدة في عبور شاب مصري إلى غزة! أدهشني رجاؤها وسألتها ما بين الجد والضحك "شو معه؟ سلاح؟ مخدرات؟ بضاعة؟ ". حركت كفيها أمام وجهي هاتفة "لا عمو.. لا.. ما عنده شيء. أنت عارف المعبر مقفول. صمتت وأحنت رأسها منكمشة. قالت بصوت يذوب كأنما تتلاشي داخل قطعة سكر "يحبني". وغمرني من كلمة "يحبني" سلام عجيب، كأن العالم قد تصالح داخلي. بعد لحظة طقطقت بلساني آسفا "لكن يا ريم تعرفين قصة المرور من الأنفاق ليست سهلة!".

نظرت إليَّ تلك النظرة المعذبة الراجية التي يرسلها نحوك شخص لا أمل له سواك، ودمعت عيناها. قلت لها "ولا يهمك. نعملها ". كادت أن تثب مهللة من الفرح "صحيح عمو؟ صحيح؟! بتعملها؟" قلت "صحيح ونصف، ونعمل أبوها كمان". رتبنا العملية من حيث التوقيت والمكان والأشخاص ليعبر شوقي إلى غزة. مضى كل شيء بدقة. الآن لم يبق إلا أن يظهر شوقي.

قصدت الحجرة التي توجد في منتصفها فتحة النفق المنتهى بفتحة مماثلة في رفح المصرية. فتحت بابها ودخلتُ و ريم ورائي. لم يكن بالحجرة شيء سوى ثلاثة مقاعد خشبية قصيرة بدون أذرع أو ظهور، ومعاول مرمية على جنب. في المنتصف فتحة النفق مثل فم الأرض. جلست ريم عند حافة الفتحة وأرسلت بصرها إلى العتمة. من تلك الظلمة ينبغي أن يظهر شخص ما، عزيز عليها لتأتي إل ى هنا. غالية عنده ليخاطر بحياته زاحفا نحو الساعة في نفق بأقل القليل من الهواء.

خرجت أحضر شايا ورجعت فوجدتها مازالت تحدق في فتحة النفق ثم سألتني:

- تقريبا بعد كم من الوقت يصل؟

قلت: بعد أقل من نصف الساعة يكون هنا. لا تقلقي . فجأة ستجدين شوقي معك. وومض في مخيلتي برق الفولاذ في الشمس، ولأخفى قلقي سألتها:

- وين يدرس؟

انفرجت شفتاها عن بسمة صغيرة:

- أولى آداب جامعة القاهرة.

- ولد طيب؟

هزت رأسها مرتين: بلى. طيب جدا. وأطرقت تحدق في فم الأرض.

- وكيف تعرفت به؟

- من الانترنت. الأول كنا نكتب لبعض، وبعد ذلك صرنا نتشاوف عن طريق كاميرا ويب. سنتين نعرف بعض. قال لي تعالي على الأردن ومن هناك على مصر. لكن أمي قالت لا أزوج ابنتي الوحيدة بدون أن أرى الشاب. قال سآتي أراك وأخطبك من أمك.

ضحكتُ: يا الله!

ابتسمت بخجل: تسخر منا أنت يا عمو؟

قلت: لا. لا. أعوذ بالله. أتظنين أني ولدتُ هكذا بشارب غليظ؟ أنا أيضا كنت شابا ذات يوم. بل وكنت جميلا! ورسمتُ الدهشة على وجهي واضعا يدي على جيبي كأنما سأخرج شيئا: "عندي صور تثبت كلامي! تشوفي؟".

ابتسمت ريم كالأطفال وهم يعلمون أن ما تحكيه لهم لم يحدث لكنك فقط تريد أن تمتعهم بحكاية فينظرون إليك مبتسمين.

خطوت بعيدا عنها قليلا. أخرجت المحمول من جيبي وجمعت رقم مصر. رد عليَّ حسين . قلت له "كيف الأخبار عندكم؟". قال "الحمد لله. الحاجة راحت خلاص". قلت "بقى لها قد إيه؟". قال "نص ساعة". سألته "وأخباركم الأخرى طيبة؟". قال "ماشي الحال". ودعته . نظرت لريم "خلاص هانت. شوقي في الطريق. قريب يكون هنا".

نظرت بقلق. قلت مطمئنا إياها "لا تخافي. كثيرين يأتون، وكثيرون يذهبون".

جلسنا نحو ثلث الساعة نتذكر والدها، وحي الجنينة الذي ولدت به، والأيام التي كنت أزورهم فيها، لكن عقلها لم يكن معي. فجأة، أحنت رأسها على فم الأرض المفغور تتنصت. اتسعت عيناها ونظرت نحوي بانفعال:

- عمو.. كأني سامعة صوت؟

تنصتُ أنا أيضا:

- نعم. هذا صوت بدن وأنفاس. شوقي يقترب.

أخرجت المحمول وكلمت حسين "الحاجة وصلت أبو على. دقائق وتكون عندنا. الله يعطيكم العافية".

ارتعش رأس ريم وجرت دموعها. يا الله على البنات!. مرت دقائق طويلة ثقيلة، ثم هتفت ريم مذهولة:

- أسمع أنفاسه! والله أسمع أنفاسه!

أرهفتُ السمع. نعم . إنها أنفاس القادمين. أحنت ريم رأسها على الفتحة صائحة: شوقي! خلاص ياشوقي!

ارتفع الصوت يشق الأرض ليخرج من التراب والظلمة. وما لبثت أن ظهرت يد وتشبثت أصابع اليد النحيفة بحافة الفتحة. وطلع وجه متعرق بعينين تلمعان من

الخوف والسعادة وفم يعب الهواء دون توقف. أمسكت ريم يد شوقي بيديها الاثنتين تجذبه إليها بقوة حتى برزت شرايين ساعديها بدمائها الوردية . وفجأة كأنما اطمأنت إلى وجوده أرخت ذراعيها لحظة، تتأمل الوجه المصري القمحي المنهك ببسمته الصغيرة المرتجفة. لحظة تبادل فيها الاثنان النظر بعمق ولهفة.

في تلك اللحظة، تناهي إلى سمعي أزيز الفولاذ في السماء. في أقل من ثانية صار الأزيز هديرا قويا. شلني الصوت المقترب. تحجرت في مكاني بعيدا قليلا عن فتحة النفق. تطايرت الصور والأصوات من حولي كالشظايا بسرعة جنونية. قرقعة شريط الدعامات الخشبية في النفق وهي تنهار. يدا شوقي تقبضان على الهواء وهو ينظر للأعلى بذهول. ريم تصيح. اندفاعي لأشدها وأرفعها. الجدران تتهاوى علينا. الوجه القمحي يشهق ويغص طلبا للهواء. العارضة الحديدية تسقط من السقف على ساقي. الدم يتفجر من وجه ريم وفمها. عيناي تغلقان على يديها تمسكان باستماتة بكتفي شوقي.

***

رقدت ثلاثة أسابيع في المستشفى. خرجت بعدها معتمدا على عكاز خشبي ولزمت بيتي عدة أيام. تحسنت صحتي . لكني لم أستطع العودة لعملي في حفر الأنفاق. حاولت أن أعمل تحت إلحاح الناس وقولهم مرارا "الشغل شغل يا أبو عيسى". مرتين، ضربتُ فيهما الأرض بمعولي فخرج لي من تحت التراب الوجه القمحي والبسمة المرتجفة.

انقضت ثلاثة شهور إلى أن قررت صباح اليوم أن أتجه إلى البيت حيث كان النفق. لم أجد هناك شيء سوى كومة كبيرة من الأنقاض. أخذت أنكش الأرض بطرف عكازي بحثا عن شيء ما تبقى منهما . وجدت تحت إطار نافذة مخلوعة دفترا صغيرا اسودت أطرافه من الحريق. فتحته . راحت صفحاته تتساقط رمادا أمامي. الصفحة الأخيرة نجا نصفها بعبارة واحدة "وحتى بلا فم سأظل أهتف باسمك، وبلا قدمين سأشق دربي إليكِ. شوقي".

الدفتر بين يدي . رأسي محني عليه . كتفاي وبدني كله يرتج من النشيج . أبكي كما لم أبك أبدا. تتراءى لي صورة أمي، وبيتنا في رام الله، وطفولتي، وطابور أقاربي المهاجرين بمفاتيح بيوتهم، وحياتي أمامي مزق صغيرة تبعثرها الريح، وريم تنداح بداخلي مثل نغمة مفرحة في الأصل لكنها تتردد مبطئة شجية.

- ديسمبر 2010 – أخبار الأدب

◘ ◘ ◘

جئت أنتِ

يزور أمه على الأقل مرة كل أسبوع بعد إصرارها على عدم الانتقال من بيتها رغم عجزها عن الحركة. يحمل إليها فاكهة يناولها للشغالة التي ترعاها، ثم يدخل حجرتها ويقعد على طرف السرير عند قدميها وهي جالسة محنية للأمام تراخت يداها في حجرها كجناحي طائر لا يرفرف. يزورها ولا يملك لها شيئا سوى أن يضحكها، أن يروي لها كل ما يستحضره من مفارقات وطرائف، فإذا لمعت بسمة في عينيها همس لنفسه "الله!" . وحتى حين تلقى بجسدها للخلف وتتلمس برأسها موضع الوسادة وتنعس، فإنه يمسد جبينها ويحكي، يتأمل جفنيها المغلقين مثل سحابتين على قمرين متعبين، ويواصل الحكي، فقد هجس في نفسه دوما أن للعقل أثناء النوم صحوته الخاصة، مثل حديقة في ليل، تتنفس، تحت ضوء آخر.

دخل حجرتها. جلس. اطمأن عليها. قال لها "صحتك تمام". مازحها بقوله إن منظمي بطولة التنس ينتظرون قرارها إن كانت ستشارك أم لا؟. فحنت عليه بابتسامة خفيفة. حاول أن يطعمها بيده قطعة لحم مسلوق . نهض يدلك قدميها بيديه. خطرت بباله الحكاية التي وقعت منذ عشرين عاما. ذكرها بها فغمغمت بوجه متحير "لا أذكر". ألح على تذكيرها ببعض التفاصيل وهو يضحك. سألته بتشكك "أتختلق الحكايات؟". سددت نظرة إلى الماضي تستفسر "هل حدث هذا؟". قهقه مؤكدا عبر أنفاسه المتقطعة "نعم". وحدق فيها بعينين لامعتين ووجه متورد من الانفعال.

بشرود وتعب تحاول بما تبقى من يقظة العقل أن تقبض على ظلال تتلاشى في عتمة. يؤلمه عجزها عن الحركة. يضع يدها بين كفيه ويضغط عليها بحنان. يحكي لها.

"منذ نحو عشرين عاما، حين كان طالبا في الجامعة، اعتقلوه مع عشرات من زملائه الآخرين، وبعد أسبوعين فاجأه ألم شديد داخل الزنزانة، فنقلوه إلى مستشفى قصر العيني لإجراء عملية".

بسبب كلمة عملية يتوتر وجهها، يفزع قلب الأم لابنها حتى من أمر وقع له في الماضي ولا تذكره. يطمئنها: "كانت عملية بسيطة. لاتقلقي". يحكي لها.

"وصل إلى المستشفى بحراسة شاويش، وعلى الفور أخلوا له مكانا في حجرة معزولة في نهاية ممر طويل. دخلها ومن خلفه الشاويش يدير عينيه في المكان يتفحصه، وعندما اطمأن إلى أنه ليس بالحجرة سوى شباك عليه قضبان جرجر كرسيا وثبته قرب الباب وحط عليه. أما الشاب فأرخى حزام الحقيبة الصغيرة المعلقة على كتفه وتركها على كومدينو. استدار وألقى نظرة على السرير

المقابل. رأى رجلا يناهز الأربعين. رأسه مرفوع على وسادة ويداه معقودتان فوق نصف صدره يتنفس بصعوبة ويدير عينيه بقلق بين الشاب والشاويش. أخذ الشاب يتأمله، فقبض الرجل على طرف الملاءة وسحبها مختفيا بالكامل تحتها. اتجه الشاب نحو الشباك الصغير. في الصمت المخيم كانت تصله صافرة حشرجة أنفاس الرجل من تحت الملاءة. سمع سعلة شديدة فالتفت إلى الرجل "سلامتك. تحتاج أي شيء؟". لكن الآخر مال على جنبه ببطء دون أن ينطق وجعل ظهره للشاب ووجهه للحائط. خمن الشاب أن الرجل يخشى الكلام معه مقدرا أنه "خطر" مادام ثمة شاويش يحرسه.

هنا تسأله باستنكار وقلق "أنت خطر؟!". يقول "نعم". تستغرب "أكنت هكذا من صغرك؟". يقول مبتسما "طوال عمري كنت شقيا يا أمي". تمط شفتها بعدم تصديق. تسأل "أتختلق الحكايات؟".

يحكي لها.

"بعد ساعة من وصول الشاب أجر وا له العملية الجراحية . ومر يوم، والثاني، والثالث، كان الرجل خلالها يطل برأسه من تحت الملاءة ساعة الطعام فقط. يأكل ويرسل للشاويش نظرات متلاحقة بما معناه "كما ترى أنا لا أكلم الشاب ولا علاقة لي به". حين ينتهي من الأكل يتنهد بأسى ويختفى تحت الملاءة. ثم جئتِ أنتِ..".

هنا تنتبه الأم. تشتعل عيناها بالنظرة الصافية القديمة، كأنما انتفض فيها العصب القوي المرتبط بكلمة "أنتِ". تفكر "أنا؟ كيف جئت؟".

يحكي لها.

"ثم جئتِ أنتِ.. حين فوجيء الشاب صباح اليوم السابع بيد تدفع باب الحجرة، وبأمه واقفة تسد فتحة الباب كشراع مركب. كان الشاب قد تمكن من تهريب رسالة لبيته بأنه بمستشفى كذا حجرة رقم كذا مع مريض آخر. لكنه لم يتوقع أن تصل الجرأة بأمه حد زيارته دون أن تبالي بأن الزيارة ممنوعة. نعم. جئتِ أنتِ..".

تفتح عينيها بدهشة "أنا؟". يقول "نعم".

يحكي لها.

"كتم الابن شهقة المفاجأة حين رأى أمه واقفة وهي تضم إلى صدرها كيسا ورقيا يبرز من حافته برتقال وأصابع موز وهي تقلب عينيها في الحجرة بنظرة من يفتش عن وليده في اللهب".

هنا ترفع رأسها كأنما فوجئت بظهورها في حكايته. تضيق عينيها العجوزتين الصافيتين مثل نسر نسي التحليق. تقول "هل حدث هذا؟". تسكت مبهورة بلمرأة تتخيلها لكنها لا تتذكرها.

يحكي لها.

"هب الشاويش واقفا يصدها. قالت "جئت أزور سي خلوصي" وأومأت برأسها ناحية سرير الرجل الآخر! تفحصها الشاويش بشك ثم عاد لجلسته وللجريدة التي بيده. توقفت بين السريرين في منتصف الحجرة. ألقت نظرة على ابنها وحبست دموعها. جلست على حافة سرير الرجل الآخر ووضعت كيس الفاكهة بينها وبينه. خاطبت الرجل لكن وهي تحدق في ابنها "والله ياسي خلوصي العائلة كلها تسأل عنك وفي غاية الشوق". ثبتت نظرتها على إبنها "في غاية الشوق يا حبيبي". أدرك الرجل أنه المقصود بخلوصي وأنه أصبح شريكا في تدبير زيارة ممنوعة، فأخذ يائسا ينظر تجاه الشاويش لينبهه لما يجري. استدارت الأم بجسدها ناحية ابنها "وأختك تبلغك سلامها". سحب الرجل الملاءة على رأسه واختفى تحتها. أمسكت بالملاءة وأنزلتها بالقوة لأسفل "وأبوك يقول لك إذا احتجت فلوس اكتب له". شد الرجل الملاءة. سحبتها ناحيتها. شدها، سحبتها. وظلا يتجاذبان طرف الملاءة بسرعة متزايدة وهي تكرر "ياعين أمك ياضناي". فجأة نهضت واندفعت إلى سرير ابنها تضمه وتبكي هاتفة "يا حبيبي يا ابني".

تحدق فيه . تحاول أن تتذكر تلك العاطفة الساخنة . تحاول أن تقتطف باقة المشاعر الحارة. تحاول أن ترى هل يمكن لوهج إحساس انقضى ولا تذكره أن يتقد مجددا؟. شيء يمتد مطمورا بين الأزمنة ولا يندلع. تؤرجح رأسها يمينا ويسارا وفي عينيها أسف لأنها لا تستطيع أن تتذكر اللحظات التي كان فيها قلبها عامرا بالدفء والشجاعة.

يحكي لها.

"أفاق الشاويش على ما يجري ربما بسبب كلمة "يا ابني" التي لم تكن لتليق بسن الرجل الآخر، أو بسبب اللوعة في صوتها، فهب من مكانه يجرجرها من كتفها إلى خارج الحجرة. وقفت في فتحة الباب تصيح ناحية ابنها "ولا يهمك. مسيرك تخرج". زعق الشاويش فيها "عيب قوي كده ياست". خرجت مستمرة في الصياح "عيب؟! ماشاء الله على العيب". وارتها الردهة وصوتها يتردد من بعيد "قال عيب قال".عاد الشاويش إلى مقعده وهو ينفخ "قلة أدب" . وعبرت وجه الرجل الآخر سحابة خجل من أنه حاول فضح حيلتها بدلا من أن يداري عليها، ثم قال بصوت منهك "لايصح ذلك"!. حلت الدهشة على ابنها، فهي المرة الأولى التي يسمع فيها صوت الرجل. قال الآخر "أقول لا يصح أن يتفوه الشاويش بمثل هذه الكلمات". وابتسم الرجل "لكن من أين جاءت الوالدة باسم خلوصي هذا؟". وضحك، فقهقه ابنها ومد كفه في الهواء يضرب بها كف الرجل استحسانا. تبادل الاثنان نظرة طويلة عميقة".

فردت أمه جسدها متعبة، نهض وأحكم الغطاء حول قدميها. سألته بصوت غاف "هل حدث هذا حقا؟". قال "نعم". قالت "وأنا جئت إليك والزيارة ممنوعة؟". قال "نعم". أدارت رقبتها إلى الناحية الأخرى وسرحت ببصرها.

"وتشاجرت مع الشاويش فعلا؟". ضحك "نعم"! سألته قبل أن يأخذها النعاس تماما "ألا تختلق هذه الحكايات لتضحكني؟". قال "لا، أنتِ جئتِ.. فعلا جئتِ".

◘ ◘ ◘

رجل صغير

منذ نحو نصف القرن كتبت هذه القصة، ونشرت في مجلة صباح الخير في 5 مايو عام 1966 بتقديم الكاتب الكبير العزيز محمود السعدني . كتبتها وأنا في الخامسة عشرة وتركتها، ثم نشرتها بعد بعام . أدرج هذه القصة هنا لأنها مازالت عزيزة علي ليس فقط لأنها من أول ماكتبت ولكن لأنني كلما قرأتها رأيت فيها طفلا يكتب عن طفل.
أحمد الخميسي

رجل صغير

أخذ أبي يروح ويجيء في غرفة المكتب المختنقة بدخان سجائره، بينما أمي منكبة على الورق محنية الظهر قليلا تكتب ما يمليه عليها.
أبي كاتب معروف يكتب قصصا وشعرا ومسرحيات، ويستطيع أن يقول أشياء كثيرة عن الأدب بصوته الجهوري ، لابدأنك تعرفه وتعرف أنه يناقش أمي كثيرا حتى يصدعا رأسي.
–شكري.. اسمع علشان تستفيد.
–هه ؟ آه. حاضر
–أخذت أتابع أبي بعيني وأنا قابع في ركن على كرسي، وبينماهو يتحرك كان يقول بين الفينة والأخرى كلمة غريبة هي " كومة" (،)، كما يطقطق بلسانه قائلا : هه .. آه .. انتظري .. اشطبي السطر الأخير. ارجعي تاني بقى . أيوه اكتبي.
ويعود للحركة وهو يملي عباراته ويكرر كلمة " كومة " (،) بينما أنا أرقبه رائحا غاديا ويداه معقودتان خلف ظهره .
كانت هذه " الكومة " تدهشني وتثير فضولي فأسأل نفسي : ماهي هذه " الكومة" ياترى؟ لابد أن أمي قرأت كثيرا حتى عرفتها.
في النهاية لا أجد مفرا من أن أستسلم لليأس وأتنهد ممنيا النفس بفهمها حين أكبر وأدرس في الجامعة ويكون عقلي كبيرا.
حين انتهى أبي من إملاء مقالته وانطلق إلي غرفته كي ينام، وبعد أن جمعت الخادمة أعقاب السجائر وأكواب الشاى الفارغة ، كانت أمي تتثائب ، فاقتربت منها وقد صممت على شيء كنت قد فكرت فيه منذ أيام. وضعت أمامها على المكتب بعض الأوراق وقلم رصاص ودون أن أدع لها فرصة للكلام كنت قد عجلت بعقد يدي خلف ظهري وانطلقت رائحا غاديا على البساط لأملي عليها أول محاولة لكتابة قصة. لم تستطع أمي أن تكتم ضحكة سخرية وقالت وهي تقوم من مقعدها وتلوح بذراعها:
–ياأخويا .. ح تبقى أنت وأبوك.

ثم صاحت :
–يابت ياسعدية نظفي المطبخ ونامي.
وانصرفت إلي حجرتها في تثاقل وهي تتثائب.
انفكت يداي المعقودتان خلف ظهري واحمر وجهي ووقفت الكلمات في حلقي. لقد أطفأت أمي حماسي المتقد. أحسست بإهانة تطعن صميم كبريائي، فما معنى ألا تكتب أمي ما أمليه عليها؟ هل لأني مازلت صغير السن ولا أجيد التأليف؟ وهل لنفس السبب لا تأتي الخادمة حين أنادي عليها كما يفعل أبي؟
" أف " تنهدت في غيظ . لكن أمي كانت قد نامت وما عاد ينفع غيظى ببصلة. أخذت أفكر فى واحدة.أى واحدة. نعم.المهم أن تقبل أن أملى عليها كما يفعل أبى مع أمى، على أن لا تكون أختى الكبيرة فهى مخيفة. لا تتفاهم بلسانها، فإذا أمليت عليها شيئا لا يعجبها فلن تقول فى طاعة كأمى: حاضر . من تكون إذن؟ هل تكون ابنة عمى ولا هذه فهى بدينة ثقيلة . إذن.. من ياترى؟
آه وجدتها.صديقة أختى.سمراء خفيفة الدم.عمرها حوالى إحدى عشرة سنة.لكن هل تقبل؟ هه؟ نعم. نعم ستقبل فهى مهذبة. تخيلتها وهى فى شقتها الواقعة أمامنا فى نفس الطابق، تكتب ما أمليه. وهنأت نفسى وفرحت . نعم. نعم. خلاص .الله.
ذهبت إلى حجرتى وقبل أن أستغرق فى النوم برز فى رأسى سؤال-ولكن ما هى هذه الكومة (،) ؟

* * *

عصر اليوم التالى أخذت كراسة من كراسات المدرسة،وشطبت جيدا كلمة "المادة: حساب" وتناولت قلمى الرصاص بالتهذيب بعد أن فشلت فى إقناع والدتى بإعطائى قلمها الحبر الثمين.غسلت ذراعى حتى ثنية كم القميص وانطلقت مشحونا بخوف ممزوج بالأمل وقد ألصقت الكراسة بفخذى.
طرقت الباب والعرق يزحف بين حاجبى . بعد برهة انفتح.كانت هى. افتر ثغرها عن بسمة رقيقة وقالت بلهجة لاتخلو من دهشة:
ـ أهلا وسهلا.ثم ارتبكت وهى تقول: اتفضل ادخل..
خطوت بقدمى الخطوة الأولى داخل الشقة ثم أخذت أتلفت يميا وشمالا وقد فتحت فمى لتكتمل صورة أبى الفنان المذهول، وأجبتها على سؤال لم تسأله:
ـ الله يسلمك يا نعمة.
دخلت إلى حجرة الصالون المتسعة. ألقيت بالكراس والقلم على المنضدة الرخامية، جلست على أحد المقاعد الوثيرة. وبعد تردد بسيط وضعت ساقا على ساق ثم تنحنحت مدعيا اللامبالاة والثقة بالنفس بالرغم من أن قلبى كان يدق. وساد

صمت أنهيته برفع حاجبى سائلا فى ترقب بصوتى الرفيع الذى حاولت أن أجعله جهوريا عميقا:

ـ مين هنا يا نعمة ؟

أحسست وأنا أنتظر إجابتها بقلبى يغوص بين ضلوعى .ردت وهى تضحك فى بساطة ولطف هازة كتفيها:

ـ مافيش حد أنا لوحدى.. ماما وبابا خرجوا.. وأبلة سناء عند خالتى.

التقطت أنفاسى وشعرت براحة.سوف يتسع المجال إذن دون مضايقة.نظرت إليها وقلت:

ـ أنتِ بتاخدى إملاء فى المدرسة؟

قالت مندهشة: طبعا.يا خبر.دى أبلة سعاد بتاعة العربى كل يوم بتدينا إملا...

قلت وأصابعى فى فمى أقضم أظافرها:

ـ أصل..الحقيقة يعنى.. فيه فكرة قصة فى ذهنى... ممكن أمليها لك؟

أمسكت أنفاسى منتظرا إجابتها التى ستحدد كل شىء وأنا أدعو فى سرى "يا رب خليها تقبل".

وجدتها تقول فى سرور كأنما أعجبتها الفكرة:

ـ آه... أوى... ياللا... دلوقت مش كده؟

أجبت فى فرح: آه.. طبعا دلوقت.

بدأت أمنيتى تتحقق. سأملى عليها. قمت من مكانى . أمسكت بيدها الصغيرة الأصابع وأجلستها على المنضدة . تذكرت أمى وهى فى وضعها، فأوصيتها أن تضع يدها على خدها مدعيا أن ذلك لراحتها وابتعدت عنها قليلا كى أتمكن من رؤيتها على بعضها، وقلت: خليكِ كده بقى.

بقى وضعى أنا. ذهبت إلى طرف البساط لأبدأ قصتى التى لا أعرف عنها شيئا. أولا وضعت يدي فى جيب سروالى . ثانيا أمسكت ذقنى بيدى الأخرى،ولم يفتنى طبعا أن أقطب ما بين حاجبى، فهذا أهم ما فى الأمر كله. مططت شفتى. ولم ا لم يبق شيىء أمطه أو أقطبه قلت وقد انتابنى شعور بالرهبة:

ـ هيه... اكتبى.

تنحنحت وخطوت بقدمى الخطوة الأولى على البساط ونطقت بأول كلماتى:

ـ كانت الدنيا ضلمة جدا..اكتبى.على فكرة ضلمة بالضاد.

رفعت رأسها الصغير ثم أزاحت ضفيرتها وطرف القلم فى فمها وسألتنى:

ـ بالضاد ولا بالظاء؟

تصنعت الدهشة وقلت لها: بالضاد.. بالضاد طبعا، إمال بتقولى بيدوكِ إملاء إزاى ؟

أطاحت صورة أبى ويداه معقودتان خلف ظهره بعقلى. آخ ! كيف حدث أن يدى فى جيب سروالى؟ انتزعتهما بسرعة وعقدتهما خلف ظهرى.أيوه. هكذا تماما يفعل أبى. المهم أن نعمة لم تلحظ ما فعلت. ماذا؟ انها تنظر لى بطرف عينها. لم أكن أظن انك سترجينى هكذا. لعلها لا تقصد شيئا . فلأبدأ من جديد.قطبت ما بين حاجبى، وأخرجت الكلمات هادئة بطيئة كما يفعل أبى تماما:

ـ ولم يكن فيه نور فى الشقة .. كتبتى؟
فقالت: أيوه.
قلت ما حفظته عن ظهر قلب لكثرة ماردده أبي أمامي :
ـ اشطبى السطر الأخير. أيوه. خلاص؟
قاطعتنى: أشطب إيه ؟ دول كلهم نص سطر!!
قلت: آه ؟ طيب.. بلاش.
وقفزت إلى ذهنى الكلمة الغريبة التى يرددها أبى. آه لو أمليتها عليها. كل مافعلت سهل أما إذا أمليتها هذه الكلمة. يا سلام. لكن ما هى هذه الكلمة؟ اعتصرت رأسى لأتذكرها. ها هى على طرف لسانى. هه. أيوه..أهى. "كومة"! خفت وترددت.هل أقولها؟ لكن لا داعى أن أقول شيئا لا تفهمه هي . لاء. لازم أقولها ونطقتها "كومة".
انتظرت ما ستقوله فى خوف.ابتلعت ريقى وأحسست بشلل فى تفكيرى وبصمت رهيب حولى.
رفعت رأسها وتساءلت فى دهشة:
ـ كومه؟.. يعني إيه كومه ؟!
يا نهار أبيض!آخ. عضضت على شفتى . شعرت بالدم يندفع إلى رأسى. لكننى استجمعت شجاعتى وأنا أقول:
ـ مش عارفه كومه يعنى ايه؟
ردت فى براءة:
ـ لاء والله .. يعنى ايه ؟
ازداد احساسى بالمصيبة فقلت وأنا أزوم:
–طيب.. بلاش..
كدت أن أفتح فمى لأقول أى شىء أضيفه للا شىء الذى أمليته، لكنى أحسست فى أعماقى بالتحدى لهذه "الكومة" السخيفة. لابد أن أمليها عليها. لكن. لعلها تريد اختبارى؟ كده. طيب.
أدرت لها رأسى وقلت بسرعة وحزم:
ـ مش عارفه "كومه" يعنى ايه؟
ردت فى بساطة: لاء .. يعنى ايه؟
لا أعرف لماذا أحسست أن فى الأمر تعمدا منها، فاغتظت واندفعت بكل جسدى النحيف القصير ومددت يدى واختطفت كراستى وقلمى الرصاص بسرعة وانطلقت خارجا من الحجرة إلى الصالة . وبرقت فى رأسى صورة أبى وهو غاضب.. نعم.انه يخرج عينيه ويجعلهما محمرتين.. كيف؟. هكذا. خرجت، وصفقت الباب خلفى.

◘ ◘ ◘

ـ مجلة صباح الخير – 5 مايو 1966

ليل بلا قمر

أمام مربط الخيول علقوهم. عشرون رجلا كتفا إلي كتف. ظلال ترتجف على الأرض تحت سماء بلا قمر. دفقة أخيرة من دفء أبدانهم تطفو في الجو. بالقرب من المشانيق تربع ثلاثة خفراء حول قش مشتعل سيوفهم بجوارهم. راحوا يغمسون لقم البتاو في صحن مش أزرق. يمضغونها بقوة وإصرار في صمت. شبعوا فارتدوا بظهورهم إلي الوراء. أطلق أكبرهم سنا زفرة " ليس من السهل أن تعلق عشرين رجلا مرة واحدة". أرجح النحيف رأسه يؤيده" لا. ليس سهلا". تثاءب ثالثهم القصير ذو الرأس الحليق فاغرا فمه. وبخه العجوز" اغلق فمك. إنه طريق الشيطان إلي المؤمن". ثبت النحيف إلي العجوز نظرة متسائلة، فجرجر العجوز صرة معقودة بالقرب من ساقه، وضعها بينهم. حل عقدتها ببطء فتلألأت علي نور الشعلة خواتم بفصوص كريمة ومسامير من الذهب أطرافها مشتبكة بنسيل خيوط عمائم المشنوقين. سادت لحظة صمت. مسد العجوز ذقنه البيضاء وبسمل ثم رفع الجزء الأكبر من المجوهرات وأعاده إلي الصرة. عقدها قائلا " هذا حق أتابك العسكر يأخذه في الصباح". بقيت على الأرض عدة خواتم ومسامير. زحزح إلي كل من الرجلين حصة وتناول نصيبه ودسه في كيس.

نهض القصير. التقط سيفه وشده إلي خصره. سار مبتعدا ليقضى حاجته وراء نخلة. سرعان ما هرول راجعا "يا جماعة. ثمت مشنوق ناقص".انتفض العجوز والنحيف. قال "مرتين أحصيتهم ببصري. تسعة عشر. ثمت مشنوق ناقص يا أخوان". ارتجف صوت العجوز" ما الذي تقوله؟ قام أتابك العسكر بتسليمنا عشرين رجلا؟! ". هتف القصير" ثمت واحد ناقص ". قال النحيف" لابد أن الحبل لم يكن محكما على رقبة أحدهم، أو أن الأهالي تسللوا خسلة ونزعوا أحدهم".

اندفع الثلاثة إلي الأمام. توقفوا بغضب أمام المشانيق. مر كل منهم بعينيه على الرجال يحصي عددهم. مرة. اثنتين. تسعة عشر. تهدلت كتفا النحيف " إذا جاء أتابك العسكر ووجد فردا ناقصا سيأمر بضربنا بالمقارع حتى الموت". تمتم القصير" فلنقرأ الشهادة على أرواحنا إذن". حدق العجوز بالفراغ المعتم ثم قال من بين أسنانه المهشمة " سنجثم في الظلمة. ننتظر إلي أن يرزقنا الله بعابر طريق، يفك كربنا". هرول القصير إلي الشعلة وأطفأها بضربات متتالية من قدمه، ولحق بالرجلين المحتجبين بالنخل.

انقضت نحو ساعة تحت السماء الغائمة، واشتد النسيم البارد، وأبصارهم مثبتة إلي الطريق من دون أن يتبادلوا كلمة، يفكرون في الموت الذي يتهددهم إن لم يظهر شخص آخر. انقضى وقت وصدورهم تعلو وتهبط بأنفاسهم ولا أحد. فجأة تناهى إليهم من بعيد دق سنابك على الأرض. تبادلوا نظرات سريعة تلمع بالتوتر. أخفوا رؤوسهم وراء فروع النخيل وكتموا أنفاسهم تماما. من بعيد لاحت على الطريق مهرة. على سرجها فتى لايتجاوز السادسة عشرة بتلفيحة حول عنقه. رفع

القصير كفيه إلي السماء حمدا وشكرا. حين حاذتهم المهرة خرج الثلاثة وقد رفعوا سيوفهم في الهواء. أخذت المفاجأة الفتى فشد لجام المهرة وتوقف. على الفور لمح في أعين الرجال الثلاثة إصرارا أسود. انقبض قلبه. ألقى السلام عليهم توخيا للنجاة.

قبض العجوز على لجام المهرة "اهبط". تلعثم الفتى" أنا ذهبتُ بأمي إلي خالي لأنه على فراش الموت وعائد إلي داري". كرر القصير بحزم" قال لك اهبط فاهبط إذن". وولم يمهله وقتا.أمسك به من ساقه وجذبه بعنف. انزلق الفتى من على السرج منكفئا على وجهه. لملم نفسه من الأرض. نهض واقفا. بدا مثل مهرج من الموالد قصير القامة. ساقاه مقوستان. رأسه ضخم وعيناه زائغتان. أخذ يشرح ثانية " أنا ذهبتُ بأمي وأعود الآن إلي داري". أمعن النظر في الوجوه الثلاثة فوجدها صلبة مغلقة. قال لنفسه " ثمت شيء غلط ". تلفت حوله يفتش بعينيه عن أمل في النجاة فلم ير سوى عتمة تتدفق في الصمت بريح متربة. ارتد بصره إليهم " خذوا المهرة. والله ما أحتكم على شيء آخر. أنا فقط ذهبتُ بأمي".

جره القصير من رقبته إلي الأمام، وأخذ العجوز والنحيف يحثانه على السير بلكمات من الخلف. كاد أن يقع على وجهه. اعتدل وأدرك أن أمامه فرصة واحدة أن يتودد إليهم ويتقرب منهم. قال" أنا يا إخوان نقاش. من حارة الطبق. جئت من بلدنا إلي خالي ليعلمني الصنعة. لكن والله ما معي شيء ياجماعة" واصلوا دفعه نحو المشنقة وهو يواصل" حارة الطبق بُيعت بيوتها في المجاعة بطبق من الخبز. كل دار برغيف. فسميت حارة الطبق. يعرفونني هناك. ووالله ما معي شيء يا إخوان". صده صمت حجري فتمتم " أنا فرج يا إخوان. إسألوا عني في الحارة . سيقول الجميع لكم إني طيب وفي حالي". دفعوه. رأى أنه يدنو من الموت فتشبث نعله بالأرض" أنا في حالي". زغده القصير في كتفه" امش وأنت ساكت". جرجروه عدة خطوات فلاحت أمامه جثامين المشانيق المدلاة . غرز عقبيه في الأرض. توالت اللكمات بعنف على وجهه ورقبته. التفت ذراعاه على ساق نخلة. فكه القصير بضربة أسالت دمه على شفتيه. أعادوه إلي الطريق. نظر إلي المشانيق غير مدرك" ثمت غلطة ". عكف على ركبتيه يزحر" لم أفعل شيئا ياجماعة". هبط خدر ثقيل عليه. تدفقت إلي ذهنه دوامة منهكة من صور ساطعة غير مكتملة. استولت عليه رغبة وحشية في أن يصرخ بقوة. صاح " ثمت غلطة" . زجره القصير" تقدم". بلغوا به سلما خشبيا صغيرا من درجتين يصعد إلي المشنقة. رفعوا قدمه وهو يرفس في الهواء ويصرخ ووضعوها على السلم. الآن يشعر أنه يرى الموت والحياة معا في لحظة واحدة.

رفعوه إلي أعلى . تأرجحت الأنشوطة أمامه في الهواء. تهدم وعيه مثل حجارة بيت تتساقط. قيد القصير يديه من الخلف بحبل غليظ قائلا " لو أنك مؤمن حقا لألهمك إيمانك أن تتخذ طريقا آخر". شد وثاقه بقوة. تأكد أنه لا أمل، فلم يعد قادرا على استحضار الكلمات لملاحقة مايدور في ذهنه." ذهبت بأمي. أشهد ألا إله إلا الله". أسقط العجوز الأنشوطة حول رقبته قائلا " المؤمن يفرح بالموت لكنك مذعور". اندفعت إلي رأسه بضغط عنيف صور مفتتة مثل وعي يتمزق، ذكريات، كلمات،

أصوات، روائح. برق في عينيه ومض ملتاث. غرز العجوز قدمه في خصر الفتى ودفعه في الهواء. ضرب الهواء أمامه بذراعيه وفي عينيه لمعة الجنون وهو يشهق طلبا للهواء. تأرجح قليلا ثم همد.

مكث الرجال الثلاثة صامتين يراقبون أطراف الفتى تهتز في الجو. هبطوا وابتعدوا خطوات قليلة. توقف العجوز ومر ببصره على المشانيق. قال "عشرون". لاحظ النحيف" لكن جثمان الفتى أقصر من الآخرين بكثير". عقب العجوز " أقصر أطول المهم أنهم عشرون".

ساروا ببطء نحو شعلة القش. تربعوا وألقوا سيوفهم بجوارهم. مسح العجوز وجهه بكفيه ورفع رأسه لأعلى " لك الحمد والشكر".

- نوفمبر 2013 – الثقافة الجديدة

◘ ◘ ◘

أنا وأنتِ

نجلس أنا وأنتِ إلى المنضدة التي تجمعنا كل يوم، صامتين، كعادتنا منذ سنوات. نستعد للإفطار. أنا وأنتِ. تمدين بصركِ إلى الجدار الأزرق الفاتح خلف ظهري. أتملى وجهكِ بعمق وحب ويأس. أروح وأجيء أجلب أطباق الطعام من المطبخ. يجلد قلبي أمل لا يموت. أجلس أمامكِ. أنا وأنتِ. عيناكِ تنظران بشرود خلف ظهري. لا ترينني. أرفع لقمة إلى فمي ولا أحني رأسي، ليظل وجهك أمامي، فلا يغيب عني حزنك الذي يشبه شعاعًا ينكسر. أنا وأنتِ.

تُفلت من الشرفة هبة هواء تلامس وجهينا بقبلة ثم تنزلق إلي بياض خزف الفنجانين. ثمت ذكريات تتقلب. تطرف بعينيها. تتمطى بكسل على سرير الزمن. ثمت قلق ومحبة وعزلة مؤلمة. ينتفض النبض في شريان رقبتك التي كانت تغمر وجهي بالعرق من انفعالك وهي تتلوى مثل طائر يحترق. تجري إلينا من فروع الشجر الممتدة إلى الشرفة سعادة، فنشعر أنا وأنتِ أننا كتلة واحدة اقتطعها القدر من صخرة عريقة، من برق قديم، نشعر رغم أنكِ منذ سنوات تمدين بصركِ إلى الجدار خلفي أنه ليس لنا سوانا. أنا وأنتِ. وأن موتنا سيكون كانغلاق عينين في اللحظة ذاتها. لا أحد منا يسبق الآخر. أنا وأنتِ.

تناولتُ قطعة من الجبن. أنتِ لم تمدى يدك إلي سلة الفاكهة. لم تتناولي تفاحة خضراء. لم تمسكي السكين. لم تبدأي في تقشير التفاحة. أخيرًا أنتِ بدأتِ لا تقضمين منها بأسنانك. أصبُ الشاي وأنا أسمع صوت أنفاسكِ. أقلب السكر في

فنجانك بالملعقة التي اشتريناها أنا وأنتِ منذ سنوات وكانت مذهبة وانطفأ وهجها. أنظرُ إليكِ. تواصلين التطلع وراء كتفي بحزن. كأننا لسنا سعداء. كأننا لسنا عاشقين. أرتشف رشفة من فنجاني. أنتِ لا تقبضين على يد فنجانك. ثم لن ترفعي الفنجان إلى شفتيك. أخيرًا لن ترتشفي شيئا بهدوئك المعتاد. لو أنني أعلم فقط السر الذي يجعلك بعيدة هكذا؟!! لو أعرف إلى أين تتطلعين طوال الوقت؟

أنهينا إفطارنا. حان الوقت كي لا تنهضي. لا تتجهين إلى المطبخ. لا تقفين هناك تغسلين الأطباق. ألحق بكِ. أناولك الأكواب. لا تأخذينها من يدي. لا تضعينها قرب الحوض. أظل واقفًا خلفكِ أخفق مضطربًا من الشريان الذي فى رقبتك. أطبع قبلاتي على أذنكِ الصغيرة الدقيقة. أرتدي ملابسي لأتجه إلى عملي. أنتِ لن ترافقيني حتى باب الشقة. ستظلين جالسة على المقعد بنظرة شاردة. أرجع متأخرًا في المساء ممتلئا بغرامي بك. نتناول العشاء، أنا وأنتِ بقلق ومحبة وعزلة مؤلمة. نتنشق رائحة الخبز الساخن فوق المنضدة. ذكريات في طريقها إلى النوم تتقلب على السرير. ينتهى يوم طويل جعلنا جزءًا من ذكرياته. يخطر لي أن المخيف في الموت هو الوحدة. مسيرة المرء بمفرده في ذلك الوادي. ذلك لن يخيفنا لأننا معًا. أنا وأنتِ. لأنه كانت لنا لحظات مشبعة بالغرام والعذوبة، بالهواء الذي يتدفق من الشرفة بلون المساء مؤرجحًا أطراف الستارة البيضاء.

أتملى وجهك بحب وعمق ويأس في حجرة النوم. تمدين بصرك من فوق كتفي إلى صوان الملابس. تهبطين برأسك إلى الوسادة. تطفئين المصباح الصغير. يظل قلبي متيمًا بكِ وفيه أمل لا ينتهي. فقط لو تقولين لي مَن ِمنا الذي مات ولم يعد يرى الآخر؟

***

قطعة ليل

واصل الثلاثة سيرهم منهكين على طريق تعلو وتهبط وتلتوي كالثعبان. الشمس في قلب السماء كالحريق ، والقمر مثبت في الجهة الأخرى ، أبيض ، بلا ضوء .

في اليوم الأول كانوا جماعة كبيرة من نحو خمسين شخصا ، ثم تساقط أفرادها من التعب واليأس واحداً بعد الآخر على جانبي الطريق . في اليوم الثالث تهاوى رجل وأمه ، في اليوم الخامس حطت أسرة بأطفالها تحت شجرة ، ثم شابان

عاشقان ، ثم ذلك الرجل الذي قال إنه لا يرى جدوى من هذا البحث ، ولكنه ينضم إليهم من باب الفضول . وبعد ذلك لم تعد لدي أحد رغبة أو جهد لمراقبة الذين ينسلون بهدوء.

كان الثلاثة يجرجرون خطواتهم والغبار يتصاعد حول أقدامهم والعرق يسيل من أعناقهم إلى ظهورهم . من وقت لآخر كان أحدهم يتطلع إلى جانبي الطريق المقفرة بحثا عن ظل شجرة ، أو إلى السماء ربما تعبر سحابة مثقلة بالماء ، أو يرهف السمع إلى خرير مياه في نهر بعيد متخيل .

قال البدين الذي احمرَّت عيناه وهو يدفع جسده إلى الأمام:

ـ لو أنها أمطرت على الأقل .

ولم تكن لدى الاثنين الآخرين : النحيف ، والقصير ، قدرة على النطق بشيء . في اليومين الأخيرين كانت الكلمات تخرج من الفم كأنها أحجار ثقيلة ساخنة وملتهبة.

ابتلع القصير ريقه يرطب به حلقه :

ـ قيل لنا إن قطعة الليل مسدلة خلف الجبل ، وهانحن قد تركنا الجبل منذ أيام ، ثم جبلا ، وآخر ، والآن نمشي فلا نصادف سوى سلاحف تطل بأعناقها من جحورها ، وشجيرات صبار ، وضوء متدفق من كل ناحية . ما من شيء ، تلاشى حتى نباح الكلاب الضالة الذي رافقنا الأيام الأولى .

قال النحيف :

ـ لو كان الليل في مكان قريب لشاهدنا ولو ظلا من عتمته يعبر السماء .

توقف البدين لاهثا ، ثم ارتمى على الطريق جالسا وهو يغطي رأسه بيديه الضخمتين .

توقف الاثنان الآخران أيضا .

نظر البدين إلى ساعة يده وقال بصوت مذبوح :

ـ الثالثة فجرا ، والضوء ساطع كالجحيم ، حتى ذرات التراب مضاءة متوهجة.

ألقى النحيف بنفسه إلى جوار البدين متسائلا :

ـ ألا يجدر بنا أن نفكر في الرجوع ؟

أجابه القصير :

ـ نرجع ؟ ألا يحتمل أن نكون قاب قوسين من الليل ؟

زفر البدين :

ـ نعود إلى حياتنا دون شيء ؟

تبرم القصير :

ـ الضوء أربع وعشرين ساعة يبعث على الجنون .

تعجب النحيف :

ـ يحدق الجميع في أعين بعضهم البعض صراحة ، ولا يستطيع أحد أن يقول شيئا ، لم يعد هناك مكان لشائعة ، أو مال متدفق ، أو خطة تُدبر.

أوضح البدين :

ـ لابد أن قطعة الليل مرمية في مكان ما . كيف يمكن للحياة أن تستمر هكذا ؟

علق القصير :
- جفت حلوقنا ، ونفدت قوانا .
قال النحيف :
- مازال القمر يقف قبالة الشمس أبيض بلا ضوء .
تناول كل منهم جرعة ماء ، ومسحوا جباههم بقطرات منه ، ثم استأنفوا السير.
زحف البدين إلى الأمام والعرق يغطي عينيه والملح يحرق جلده متطلعا إلى نهاية الطريق . وكان النحيف يرسل بصره إلى السماء بحثا عن طير يضرب الجو بجناحيه ، أما القصير فراح يدفع أنفه إلى الهواء لعله يتنشق شيئا غير رائحة الدخان والحريق .
سحابة رمادية ركضت مسرعة في السماء . أشار النحيف إليها صائحا بلهفة:
- انظرا !
تطلع الاثنان الآخران إلى السماء .
هتف النحيف وركبتاه تصطكان من التعب :
- لعلها الظلمة قريبة منا في مكان ما .
اضطربت عينا البدين المحمرتين بهوس وغمغم :
-لابد أنها وراء هذه الرابية .
غذ ثلاثتهم السير ، وانحرفت الطريق بهم يمينا ، ثم ارتفعت إلى أعلى ، وظهرت رابية عالية توقف عندها الثلاثة يلتقطون أنفاسهم . وضع الطويل حافة يده فوق عينيه :
- لا أرى شيئا .
- ألم نقترب قليلا ؟
- ربما . لكن لا يبين شيء من هنا ولا يُسمع صوت .
- دقق النظر !
- لا شيء . بحر من الضوء !
مكثوا فوق الرابية يفتشون في الأفق عن خيط من ظلمة .
تقدم البدين باقتراحه :
- نستريح اليوم ونواصل السير غدا ؟
- كلا .
- فلنمض .
واصلوا سيرهم منهكين من الضوء .

◘ ◘ ◘

الكاتب

- د. أحمد الخميسي مواليد القاهرة 1948. قاص وكاتب صحفي.
- نشر أولى قصصه "الشوق" في أبريل 1965 بمجلة القصة التي ترأس تحريرها أ. محمود تيمور، ثم قدمه يوسف إدريس بمجلة الكاتب في ديسمبر 1966.
- صدرت له أول مجموعة قصصية مشترك ة عام 1967 عن دار الكاتب العربي بعنوان "الأحلام، الطيور، الكرنفال".

من كتبه :

- "كان بكاؤك في الحلم مريرا" مجموعة قصصية مترجمة عن الروسية دار المستقبل العربي بالقاهرة عام 1985
- "قصص وقصائد للأطفال" مترجمة عن الروسية - اتحاد الكتاب العرب دمشق عام 1998.
- "نجيب محفوظ في مرآيا الاستشراق" تأليف وترجمة دار الثقافة 1989 القاهرة.
- "موسكو تعرف الدموع" مجموعة دراسات ومقالات – كتاب الأهالي القاهرة 1991.
- "أسرار المباحثات السوفيتية العراقية في أزمة الخليج " بريماكوف – ترجمة وتقديم – القاهرة - مكتبة مدبولي – 1991

- "المسألة اليهودية" للأديب العالمي دوستويفسكي - مجلة أدب ونقد – العدد رقم 69 – مايو 1991- القاهرة - وأعادت مجلة "زرقاء اليمامة" عام 1996 نشر نفس الترجمة.
- "حرب الشيشان" رحلة إلى الجبال – دار المحروسة - القاهرة 1996
- "نساء الكرملين" القاهرة مكتبة مدبولي 1997
- "رائحة الخبز" مجموعة قصص مترجمة عن هيئة قصور الثقافة ديسمبر 1999.
- "قطعة ليل" مجموعة قصصية – القاهرة - ميريت 2004
- "الباب المغلق بين الأقباط والمسلمين" –الهلالي – القاهرة 2008 وأعيدت طباعته بهيئة الكتاب في 2012
- "كنار ي" مجموعة قصصية – كتاب اليوم – أخبار اليوم – ديسمبر 2010 – فازت بجائزة ساويرس الثقافية عن أفضل مجموعة قصصية فرع كبار الأدباء 2011
- "قطعة ليل" –طبعة ثانية – الكتب خان للنشر والتوزيع – القاهرة - 2011
- "نجيب محفوظ في مرآة الاستشراق السوفيتي" – طبعة ثانية – المجلس الأعلى للثقافة – القاهرة – ديسمبر 2011
- "عيون التحرير في الأدب والسياسة" – دار كيان – القاهرة - فبراير 2012

- مسرحية "الجبل" أبريل 2012 – هيئة قصور الثقافة – فازت بجائزة المهندس نبيل طعمة بسوريا - المركز الثاني - 2012
- "مجمل تاريخ الأدب الروسي" – قصور الثقافة – مارس 2012 – قدمه وأشرف على تحريره .
- " رأس الديك الأحمر " مجموعة قصصية – الكتب خان – ديسمبر 2012
- " أنا وأنتِ " مجموعة قصصية – دار كيان- 2016 – الفائزة بجائزة ساويرس كأفضل مجموعة قصصية بين كبار الأدباء في يناير 2017

فهرست القصص :

1- انتظار
2- رأس الديك الأحمر
3- كناري
4- حرج خفيف
5- واجب
6- باب مغلق
7- الطابق السابع
8- بط أبيض صغير
9- إيمى
10- نظام جديد
11- ومض
12- أحب ساراماجو
13- ندم
14- غيمة
15- الحب والفولاذ
16- جئت أنت
17- رجل صغير
18 – ليل بلا قمر
19- أنا وأنتِ
20- قطعة ليل